براءة النبي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَـٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ

.. الموروث التفسيري لكتاب الله تعالى اتّكأ على رواياتٍ يحمل الكثير منها صورةً مغلوطةً عن أحكامه ، وأعطى أعداء الإسلام حيثيّات الطعن به ، عبر استشهادهم بتلك الروايات لتشويه صورة النبيِّ ﷺ ، كمقدِّمة لتشويه صورة القرآن الكريم ..

من أبشع هذه الإساءات التي أتتنا من خلال الموروث ، تفسيرُ الآيات الأولى من سورة التحريم .. لقد وضعوا روايات ما أنزل الله تعالى بها من سلطان ، ولا تحاكي إلاّ ما في نفوس واضعيها وأهدافهم غير النبيلة .. وقد استغلّ أعداء الإسلام هذه الروايات للطعن بشخص النبيِّ ﷺ كمقدِّمة للطعن بالإسلام ، وهذا ما يراه المتابع في كتابات بعضهم ، وفي بعض البرامج التلفزيونيّة ، وحتّى في بعض الأفلام التي فُصِّلت بهدف الطعن في الإسلام ..

في هذا السياق سنقف عند هذه الآيات الكريمة لنرى حقيقة ما تحمل من دلالات ..

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ

وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ۝٣ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرًا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارًا ۝٥ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾

[التحريم : ١ – ٦]

.. التفاسير الموروثة بالنسبة لهذا النصِّ مختلفة من جهة ، وتحمل الإساءة للنبيِّ ﷺ وأزواجه من جهة أُخرى ، والأهم من كلِّ ذلك أنَّها ينقُضها كتاب الله تعالى جملةً وتفصيلاً ... لننظر في النصِّ التالي الذي نقتبسه من تفسير الفخر الرازي ، المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتح الغيب ، فيما يخصُّ الآية الأولى :

[[..... ولهذا قال تعالى : ﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ ﴾ ، واختلفوا في الذي حرَّمه النبي ﷺ على نفسه ، قال في « الكشاف » : روي أنه عليه الصلاة والسلام خلا بمارية في يوم عائشة ، وعلمت بذلك حفصة ، فقال لها : " اكتمي علي ، وقد حرَّمت مارية على نفسي ، وأبشّرك أن أبا بكر وعمر يملكان بعدي أمر أمتي " ، فأخبرت به عائشة ، وكانتا متصادقتين ، وقيل : خلا بها في يوم حفصة ، فأرضاها بذلك واستكتمها ، فلم تكتم فطلَّقها واعتزل نساءه ، ومكث تسعاً وعشرين ليلة في بيت مارية ، وروي أن عمر قال لها لو كان في آل الخطاب خير لما طلَّقك ، فنزل جبريل عليه السلام ، وقال : راجعها فإنها صوَّامة قوَّامة وإنها من نسائك في الجنة ، وروي أنه ما طلَّقها وإنما نوَّه بطلاقها ، وروي أنه عليه الصلاة والسلام شرب عسلاً

في بيت زينب بنت جحش فتواطأت عائشة وحفصة ، فقالتا له : إنا نشم منك ريح المغافير ، وكان رسول الله ﷺ يكره التفل فحرَّم العسل ، فمعناه : لم تحرم ما أحل الله لك من ملك اليمين أو من العسل .....]] ..

.. ولننظر في الحديثين التاليين فيما يخصُّ مسألة تحريم النبيِّ ﷺ للعسل على نفسه ..

مسلم (٢٦٩٥) حسب ترقيم العالميّة :

حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ مُحَمَّدُ بْنُ الْعَلَاءِ وَهَارُونُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ قَالَا حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ عَنْ هِشَامٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ الْحَلْوَاءَ وَالْعَسَلَ فَكَانَ إِذَا صَلَّى الْعَصْرَ دَارَ عَلَى نِسَائِهِ فَيَدْنُو مِنْهُنَّ فَدَخَلَ عَلَى حَفْصَةَ فَاحْتَبَسَ عِنْدَهَا أَكْثَرَ مِمَّا كَانَ يَحْتَبِسُ فَسَأَلْتُ عَنْ ذَلِكَ فَقِيلَ لِي أَهْدَتْ لَهَا امْرَأَةٌ مِنْ قَوْمِهَا عُكَّةً مِنْ عَسَلٍ فَسَقَتْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُ شَرْبَةً فَقُلْتُ أَمَا وَاللَّهِ لَنَحْتَالَنَّ لَهُ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِسَوْدَةَ وَقُلْتُ إِذَا دَخَلَ عَلَيْكِ فَإِنَّهُ سَيَدْنُو مِنْكِ فَقُولِي لَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَكَلْتَ مَغَافِيرَ فَإِنَّهُ سَيَقُولُ لَكِ لَا فَقُولِي لَهُ مَا هَذِهِ الرِّيحُ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَشْتَدُّ عَلَيْهِ أَنْ يُوجَدَ مِنْهُ الرِّيحُ فَإِنَّهُ سَيَقُولُ لَكِ سَقَتْنِي حَفْصَةُ شَرْبَةَ عَسَلٍ فَقُولِي لَهُ جَرَسَتْ نَحْلُهُ الْعُرْفُطَ وَسَأَقُولُ ذَلِكِ لَهُ وَقُولِيهِ أَنْتِ يَا صَفِيَّةُ فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى سَوْدَةَ قَالَتْ تَقُولُ سَوْدَةُ وَالَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَقَدْ كِدْتُ أَنْ أُبَادِئَهُ بِالَّذِي قُلْتِ لِي وَإِنَّهُ لَعَلَى الْبَابِ فَرَقاً مِنْكِ فَلَمَّا دَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَكَلْتَ مَغَافِيرَ قَالَ لَا قَالَتْ فَمَا هَذِهِ الرِّيحُ قَالَ سَقَتْنِي حَفْصَةُ شَرْبَةَ عَسَلٍ قَالَتْ جَرَسَتْ نَحْلُهُ الْعُرْفُطَ فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيَّ قُلْتُ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ ثُمَّ دَخَلَ عَلَى صَفِيَّةَ فَقَالَتْ بِمِثْلِ ذَلِكَ فَلَمَّا دَخَلَ عَلَى حَفْصَةَ قَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا أَسْقِيكَ مِنْهُ قَالَ لَا حَاجَةَ لِي بِهِ قَالَتْ تَقُولُ سَوْدَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَاللَّهِ لَقَدْ حَرَمْنَاهُ قَالَتْ قُلْتُ لَهَا اسْكُتِي قَالَ أَبُو إِسْحَقَ إِبْرَاهِيمُ حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ بِشْرِ بْنِ الْقَاسِمِ حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ بِهَذَا سَوَاءً و حَدَّثَنِيهِ سُوَيْدُ بْنُ سَعِيدٍ حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ مُسْهِرٍ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ بِهَذَا الْإِسْنَادِ نَحْوَهُ

.. هنا النبيُّ ﷺ يدخل على زوجته حفصة ويشرب عندها العسل ، وتحتال عائشة وسودة وصفيّة له .. بعد ذلك لننظر في الرواية التالية لنرى خلافاً لذلك ..

مسلم (٢٦٩٤) حسب ترقيم العالميّة :

و حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ حَاتِمٍ حَدَّثَنَا حَجَّاجُ بْنُ مُحَمَّدٍ أَخْبَرَنَا ابْنُ جُرَيْجٍ أَخْبَرَنِي عَطَاءٌ أَنَّهُ سَمِعَ عُبَيْدَ بْنَ عُمَيْرٍ يُخْبِرُ أَنَّهُ سَمِعَ عَائِشَةَ تُخْبِرُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَمْكُثُ عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ فَيَشْرَبُ عِنْدَهَا عَسَلاً قَالَتْ فَتَوَاطَيْتُ أَنَا وَحَفْصَةُ أَنَّ أَيَّتَنَا مَا دَخَلَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلْتَقُلْ إِنِّي أَجِدُ مِنْكَ رِيحَ مَغَافِيرَ أَكَلْتَ مَغَافِيرَ فَدَخَلَ عَلَى إِحْدَاهُمَا فَقَالَتْ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ بَلْ شَرِبْتُ عَسَلاً عِنْدَ زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ وَلَنْ أَعُودَ لَهُ فَنَزَلَ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ إِلَى قَوْلِهِ إِنْ تَتُوبَا لِعَائِشَةَ وَحَفْصَةَ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا لِقَوْلِهِ بَلْ شَرِبْتُ عَسَلاً

ولننظر في النصِّ التالي من صحيح مسلم بشرح النووي فيما يخصّ هذا الحديث ..

[[..... قولها : (فقال : بل شربت عسلاً عند زينب بنت جحش) وفي الرواية التي بعدها : (أن شرب العسل كان عند حفصة) . قال القاضي : ذكر مسلم في حديث حجاج عن ابن جريج أن التي شرب عندها العسل زينب ، وأن المتظاهرتين عليه عائشة وحفصة ، وكذلك ثبت في حديث عمر بن الخطاب وابن عباس أن المتظاهرتين عائشة وحفصة ، وذكر مسلم أيضا من رواية أبي أسامة عن هشام أن حفصة هي التي شرب العسل عندها ، وأن عائشة وسودة وصفية من اللواتي تظاهرن عليه . قال : والأول أصح . قال النسائي : إسناد حديث حجاج صحيح جيد غاية . وقال الأصيلي : حديث حجاج أصح وهو أولى بظاهر كتاب الله تعالى وأكمل فائدة – يريد قوله تعالى : { وإن تظاهرا عليه } فهما اثنتان لا ثلاث ، وأنهما عائشة وحفصة كما قال فيه ، وكما اعترف به

عمر رضي الله عنه . وقد انقلبت الأسماء على الراوي في الرواية الأخرى . كما أن الصحيح في سبب نزول الآية أنها في قصة العسل لا في قصة مارية المروي في غير الصحيحين ولم تأت قصة مارية من طريق صحيح . قال النسائي : إسناد حديث عائشة في العسل جيد صحيح غاية . هذا آخر كلام القاضي . ثم قال القاضي بعد هذا : الصواب أن شرب العسل كان عند زينب .....]] ..

ما دامت الأسماء تنقلب عند الراوي ، والمسألة مُختلَف فيها ما بين تحريم العسل وتحريم مارية ، وما دام التفسير الموروث يتيه بين قال وقيل ، فكيف إذاً تكون هذه الروايات سقفاً لتدبّر هذه الآيات الكريمة لدرجة لا تُرى دلالاتها إلاّ من منظار هذه الروايات ؟!!! .. كيف وهذه الروايات لا تحمل إلاّ الإساءة للنبيِّ ﷺ ولأزواجه ؟!!! .. كيف والصياغة اللغويّة لهذه الآيات الكريمة تنقض هذه الروايات من أساسها كما سنرى إن شاء الله تعالى ؟!!! ..

.. قبل الدخول في تفسير الآيات الكريمة الأولى في سورة التحريم ونقض هذه الروايات من أساسها .. قبل ذلك .. أليس جعل مثل هذه الروايات [المسيئة للنبي ﷺ ولكتاب الله تعالى ، والمتناقضة فيما بينها والتي ينقضها كتاب الله تعالى جملة وتفصيلاً كما سنرى] أليس جعلها منهجاً مقدَّساً يحمل صلاحية نسخ آيات كتاب الله تعالى ، هو انقلاب على منهج الله تعالى من أساسه ؟ .. نترك الإجابة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ..

.. قصّة العسل لا يمكن أن تكون صحيحة من أساسها ، فكلمة ﴿ لَكَ ﴾ في قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾ تُؤكِّد أنَّ ما تمَّ تحريمه هو ما أحلَّه الله تعالى للنبيِّ ﷺ خاصّة ، وليس ما أحلَّه الله تعالى بشكلٍ عام ، فلو كان الأمر متعلِّقاً

بالعسل لما وردت كلمة ﴿ لَكَ ﴾ ، لأنَّ العسل أحلَّه الله تعالى ليس للنبيِّ ﷺ فقط ، وإنّما لكلِّ الناس ..

.. لو فرضنا جدلاً أنَّ رواية العسل صحيحة ، لكانت العبارة القرآنيّة بصيغة أُخرى ، مثلاً على الشكل : ((يا أيّها النبيّ لم تحرِّم عليك ما أحلَّ الله)) ..... لكن ما نـــراه أنَّ العبارة القرآنيّة هي : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾ ..

.. ومهما كان الخطـــاب ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ ﴾ ، سواء كان عتاباً ، أو تنبيهاً ، أو نهياً ، فإنَّه يصوِّر حقيقة هي أنَّ النبيَّ ﷺ لا يملك صلاحيّة تحريم ما أحلَّه الله تعالى حتى على نفسه وفي بيت الزوجيّـــة .. فكيـــف إذاً يكون الأمر مع غيره ؟!!! .. وبالتالي فإنَّ عدم إعطائه ﷺ صلاحيّة تحليل محرَّم أو تحـــريم مُحلَّل لغيره ، هي مسألة أكثر وضوحاً وبياناً في كتاب الله تعالى ، وهي أَوْلى من مســـألة تحريم النبيّ ﷺ على نفسه ما أحلَّه الله تعالى له ، تلك المسألة التي لم يُعطَ لها صلاحيّة ..

.. ومهما حاولنا تبرير معنى التحريم هنا ، وبأنَّه الامتناع عن الانتفاع بـــالأزواج لا اعتقاد كونه حراماً بعدما أحله الله تعالى ، فكلُّ ذلك لا يُلغي كون الآية الكريمة تبيّن عدم إعطاء النبيِّ ﷺ صلاحيّة تحريم محلَّل أو تحليل مُحرَّم ..

.. أصل التحريم هو المنع ، وهذا المنع قد يكون شرعيّاً حينما يأتي من الله تعالى إلى المُكلَّفين المُختارين لمنعهم عن القيام بما يريد الله تعالى تحريمه ، حيث المكلَّف يستطيع فعل ذلك وفعل نقيضه في الوقت ذاته ، كما هو الحال في هذه الآية الكريمة : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ ﴾ .. وقد يكون المنع كونيّاً ، وذلك حينما يكون المعني بالمنع ليس مكلَّفاً وليس مُختاراً ، كما هو حال منع المراضع على موسى عليه السلام : ﴿ ۞ وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ ﴾ [القصص : ١٢] ..

.. إذاً .. في قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ ﴾ ، نحن أمام تحريمٍ شرعيٍ اختياري ، ولسنا أمام تحريمٍ كونيٍّ جبري ، وبالتالي فهذه الآية الكريمة تحمل بياناً جليّاً يبيّن نهي الله تعالى لنبيِّه ﷺ بسبب تحريمه لمحلَّل ، وهذا يقتضي أنَّ عدم إعطائه صلاحيّة التحريم والتحليل للآخرين هي مسألة أكثر وضوحاً وبياناً في كتاب الله تعالى ..

وكنّا قد بيّنا في أبحاث سابقة أنَّ محمّداً النبيَّ ﷺ ليس مشرّعاً ، فصفة ﴿ ٱلنَّبِيُّ ﴾ تعني جانب الخلاص والنقاء والطهارة في شخصه الكريم ، بينما المشرِّع هو الرسول [[كحامل لمنهج الله تعالى القرآن الكريم وما يتعلَّق به من تفصيل وتبيان]] وليس النبيَّ وليس محمّداً ، لذلك رأينا أنَّ أمر الطاعة في كتاب الله تعالى لم يأت متعلّقاً بالنبيِّ ﷺ ولا بمحمّد ، فلا يوجد نصٌّ قرآنيٌّ واحدٌ يقول : أطيعوا النبيَّ ، أو أطيعوا محمّداً .. أبداً .. كلُّ النصوص الحاملة لأمر الطاعة في كتاب الله تعالى تتعلَّق بصفة الرسالة ، وهي صفة تتعلَّق بكتاب الله تعالى كما بيَّنا في أبحاثٍ أُخرى ..

﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ ﴾ [آل عمران : ٣٢]

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ [آل عمران : ١٣٢]

﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ [النساء : ٥٩]

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ [المائدة : ٩٢]

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ﴾ [الأنفال : ١]

﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [الأنفال : ٢٠]

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [الأنفال : ٤٦]

﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ [النور : ٥٤]

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ [النور : ٥٦]

﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ [محمد : ٣٣]

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ [المجادلة: ١٣]

﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ [التغابن : ١٢]

.. فالله تعالى لم يقل : (أطيعوا النبيّ) ، أو : (أطيعوا محمّداً) ، أو : (وما آتاكم النبيّ فخذوه) ، أو (وما آتاكم محمّدٌ فخذوه) ، أو : (مَن يُطع النبيَّ فقد أطاعَ الله) ، أو (مَن يُطع محمّداً فقد أطاعَ الله) .. وفي ذلك بيانٌ إلهيٌّ عظيم إلى أنَّ ساحةَ اتّباع منهج الله تعالى تتعلَّق بصفة الرسالة ، التي هي في النهاية تتعلَّق بكتاب الله تعالى ..

.. وتتجلّى هذه الحقيقة بين أيدينا بالنصّين التاليين ..

﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ﴾ [آل عمران : ٣٢]

﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ [النور : ٥٤]

.. فالله تعالى حينما يخاطِب النبيَّ محمَّداً ﷺ بكلمة : ﴿ قُلۡ ﴾ ، ويأمره بأن يدعو إلى طاعة الرسول : ﴿ قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ [النور : ٥٤] ، دون الصياغة : (أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِي) ، إنّما يعني ذلك أنّ محمّداً ذاتَه كنبي ، يتحرّك ضمن ساحة لها حدودها المختلفة عن الساحة التي يتحرَّك بها كرسول ، فهو ذاته ﷺ كنبيٍّ وكشخص مُطالب باتّباع الرسول ، أي باتّباع الرسالة التي يحملها من الله سبحانه وتعالى ...

.. من هنا نرى الحكمة في تعلّق هذا النصّ بصفة النبوّة دون صفة الرسالة أو صفة الجانب الشخصي ، فبداية الآية الكريمة الأولى هي : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ ، وهذا يعني خطاباً

في ساحة الخلاص والنقاء والطهارة وأحكاماً تتعلّق بذلك .. وسياق العبارات اللاحقة تصوِّر أحكاماً في إطار هذه الساحة كما سنرى بإذن الله تعالى ..

.. والعبارة القرآنيّة ﴿ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾ في قوله تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾ ، تنفي قصّة تحريم النبيِّ ﷺ لمارية على نفسه استرضاء لبعض أزواجه كما هو في تفاسيرنا الموروثة .. فالله تعالى لم يقل (تبتغي مرضات بعض أزواجك) ، إنّما يقول ﴿ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾ ، وحسب القصّة التي لُبِّسَت على هذا النصِّ فإنّ تحريم النبيّ ﷺ لمارية على نفسه لا يكون ولا بأيِّ شكلٍ من الأشكال ابتغاءً لمرضاتها ، وهي من أزواجه ، والنصُّ يقول ﴿ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾ .. إذاً .. القصّتان : تحريم العسل ، وتحريم مارية ، تنقضهما الصياغة اللغويّة للنصِّ القرآني ..

.. نحن أمام مسألة تتعلّق بالنبيِّ ﷺ ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ﴾ بما تحمل هذه الساحة من خلاص ونقاء وطهارة ، وتتعلّق بما أحلَّه الله تعالى له ﴿ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ ﴾ ، بمعنى تتعلّق بالخصوصيّة الخاصّة بما أحلَّه الله تعالى لنبيّه ﷺ من دون الناس ، وذلك بدليل كلمة ﴿ لَكَ ﴾ كما بيّنا .. وتتعلّق أيضاً بأزواجه (كلِّ أزواجه) اللاتي عنده بدليل ﴿ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾ ، وتتعلّق بتحريم هذه الخصوصيّة الخاصّة به ﷺ من أجل مرضات تلك الأزواج .. هذا ما تقوله الآية الأولى من هذا النصِّ الكريم ..

.. الآن .. ما هو الأمر الذي أحلَّه الله تعالى لنبيّه ﷺ دون غيره من الناس والذي يتعلّق بالحياة الزوجيّة الخاصّة به من دون الناس ؟ .. الإجابة الواضحة الجليّة نراها في قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۖ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾ [الأحزاب : ٥٠]

.. إذاً .. ما أحلَّه الله تعالى لنبيّه ﷺ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ ، والذي يتعلَّق بخصوصيّة خاصّة به دون غيره من الناس ﴿ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾ ، والذي يتعلَّق بمرضات أزواجه كلِّ أزواجه ﴿ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَ ﴾ .. هذه المسألة الواردة في سورة التحريم ، تتعلَّق بالمسألة الواردة في النصِّ السابق من سورة الأحزاب والذي يبدأ بالعبارة القرآنيّة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ..... ﴾ ..

.. جميع البشر دون استثناء بيَّن الله تعالى لهم المحرَّمات ، وبنصوصٍ صريحة ، لتكون باقي النساء محلَّلات لهم ، وفي ذلك توسعة كبيرة جداً .. فلو حذفنا المحرَّمات على إنسانٍ ما من مجمل النساء ، لكان ما أحلَّه الله تعالى له ساحة واسعة جداً ..

.. ولكنَّ الأمر بالنسبة للنبيِّ ﷺ هو عكس ذلك تماماً .. لقد بيَّن الله تعالى له المحلَّلات لتكون باقي النساء محرّماتٍ عليه .. وفي ذلك تضييقٌ تقتضيه مهمّته ﷺ ، ويقتضيه النقاء والطهارة والخلاص لله تعالى الذي يتّصف به ﷺ ، وهو صفة النبوّة التي يتّصف بها ﷺ بنسبة مائة بالمائة ، ويقتضيه كون أزواج النبيِّ هنَّ أمّهات للمؤمنين : ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ ۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡ ﴾ [الأحزاب : ٦] ، فمن ستكون أمّاً

للمؤمنين بعد تعلّقها بساحة النبوّة ، عبر دخولها ساحة الزوجيّة بصفة النقاء والخلاص والطهارة ، لا بدَّ لها من تحقيق مجموعة شروط تؤهِّلها لذلك ..

.. فمن تدخل هذه الساحة وتصبح أُمَّاً للمؤمنين ، يحرم عليها الرجال من بعد النبيِّ ﷺ ..

﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٥٣]

.. فنكح زوجة النبيِّ ﷺ من بعده ، هو عقد نكاحٍ حرَّمه الله تعالى ، لأنَّه – في النهاية – بين المؤمن وأمِّه ، كون أزواجه ﷺ أمهات للمؤمنين ..

.. ومن تدخل في هذه الساحة عقوبتها ضعف غيرها في حال إتيانها بفاحشة مبيِّنة ..

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٣٠]

.. إنَّ نساء النبيِّ ﷺ لهنَّ خصوصيّة تميِّزهنَّ عن باقي النساء ، وهذه الخصوصيّة ترتِّب عليهنَّ شروطاً خاصّة بهنّ لا تُطالَب بها باقي النساء ..

﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ ﴾ [الأحزاب : ٣٢]

.. فمسألة تعلُّق المرأة بصفة الزوجيّة في ساحة الخلاص والنقاء والطهارة ، لها تعلُّقها بأكثر من مسألة ، ولا يمكن مقارنتها باقتران المرأة بأيِّ رجلٍ آخر .. من هنا نرى جانباً من حكمة تحديد المحلَّلات للنبيِّ ﷺ ، لتكون باقي النساء محرَّمات عليه ..

.. وفي هذه المحلَّلات له ﷺ ما لا يستطيع هو ردّه ، فمن هذه المحلّلات : ﴿ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ ﴾ .. وهذه المرأة المؤمنة التي تريد دخول ساحة التعلّق بشرف النبوّة ، عبر

التعلّق بالزوجيّة مع صفة الخلاص والنقاء والطهارة : ﴿ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ ﴾ ، إنّما وهبت نفسها لهذه الساحة في سبيل التقرّب إلى الله تعالى والارتقاء درجات على سلّم الخلاص والنقاء والطهارة .. والعبارة ﴿ إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ ﴾ تبيِّن لنا شرطاً لدخولها هذه الساحة ، وهو أن تهب حياتها في سبيل النقاء والخلاص والطهارة ﴿ لِلنَّبِيِّ ﴾ ..

وبعد تحقيق الشرط الأوّل ﴿ إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ ﴾ ، وهو شرطٌ يتعلَّق بإرادتها في دخول ساحة النقاء والخلاص والطهارة ، بعد ذلك ، هناك شرط آخر ﴿ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا ﴾ لا يتعلَّق بهذه المرأة ، إنّما يتعلَّق بمبدأ الخلاص والنقاء والطهارة ، بمعنى : إنْ طابق وهْبُها لنفسها لهذه الساحة والتزامُها بالشروط والأحكام المترتّبة على ذلك ، إن طابق ذلك المصداقيَّةَ اللازمةَ لدخول هذه الساحة ..

.. فهذه المرأة إنّما وهبت نفسها لساحة النبوّة ، وليس لشخص محمّد ﷺ كرجل ذكر ، وكلمتا : [﴿ لِلنَّبِيِّ ﴾ ، ﴿ ٱلنَّبِيُّ ﴾] في هذه العبارة القرآنيّة : ﴿ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا ﴾ تبيِّنان ذلك ..

.. من هنا نرى الحكمة من عودة الضمائر في العبارة القرآنيّة ﴿ وَٱمۡرَأَةً مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا ﴾ للنبيِّ حصراً ، وليس لشخصِ محمَّدٍ ﷺ .. فالعبارة ليست على الشكل (وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها لك إن أردت أن تستنكحها) ، لأنَّ الأمر ليس مجرّد أمر نكاح ولقاء بين رجل (كذكر) وامرأة (كأنثى) .. أبداً .. الأمرُ هو مسألةُ امرأة تريد التعلّق بشرف ساحة النبوّة ، واهبةً نفسها لهذه

الساحة ، عبر التزامها بالأحكام التي تُفرض عليها ، وليس الأمر مجرَّد مسألة أنثى تبحث عن ذكر كما يتخيَّل الذين في قلوبهم مرض ..

.. من هنا نرى عظمة الصياغة القرآنيّة في العبارة ﴿ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا ﴾ ، بمعنى إن أراد النبيُّ كرمزٍ للنقاء والطهارة والخلاص لله تعالى أن يُدخلها في هذه الساحة .. بمعنى إن كانت بالفعل صادقةً وتستطيع أن تُحقِّق الشروط القاسية التي تُفرَض عليها بعد دخولها لهذه الساحة ، وتستطيع أن تكون أهلاً لهذه الدرجة التي تكون فيها أمَّاً للمؤمنين .. وهذا ما نقرؤه في العبارة القرآنيّة ﴿ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا ﴾ .. فالإرادة تعود للنبيِّ كصفات نقاء وطهارة وخلاص وليس لشخص محمّدٍ ﷺ ، وهذا ما نراه بورود صيغة ﴿ ٱلنَّبِيُّ ﴾ ..... وهذه الإرادة ليست لمجرَّد النكاح ، أبداً ، فالعبارة ليست (إن أردت أن تنكحها) ، العبارة هي : ﴿ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا ﴾ ..

إنَّ النكاح في كتاب الله تعالى هو العقد ، ولا علاقة لوقوع الدخول بذلك ، فقد يحصل النكاح (العقد) دون أن يقع الدخول ، وقوله تعالى التالي لأكبر دليلٍ لمن يريد فهم الحقيقة ..

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ﴾ [الأحزاب : ٤٩]

.. إذاً .. مراد النبيِّ (كصفة للطهارة والنقاء والخلاص) ليس النكاح كعلاقة بين رجلٍ (ذكر) وامرأة (أنثى) ، وإنَّما المراد هو تفعيل النكاح (الذي هو العقد كما بيّنا) عبر طلب إمكانية وقوعه كموافقة لشروط الدخول في هذه الساحة ﴿ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا ﴾ ، فحرفا السين والتاء في كلمة ﴿ يَسْتَنكِحَهَا ﴾ لهما دلالتهما في ذلك ..

فعلى سبيل المثال في اقتران السين والتاء بالصيغة الفعليّة ، نرى أنَّ كلمة ﴿ يَسْتَغْفِرِ ﴾ تعني بذلل الجهد في طلب المغفرة من الله تعالى ، وذلك عبر تفعيل الشروط المطلوبة للحصول على هذه المغفرة ..

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء : ١١٠]

فكلمة ﴿ يَسْتَغْفِرِ ﴾ في هذه الآية الكريمة لا تعني مجرَّد طلب المغفرة ، إنّما تعني تفعيل الجهد بطلب المغفرة عبر العمل بالشروط المؤدِّية إليها .. ولذلك بعد العمل بالشروط المؤدِّية إليها حيث العبارة ﴿ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ﴾ ، بعد ذلك ، تكون النتيجة ﴿ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ ..

.. إذاً .. العبارة القرآنيّة ﴿ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا ﴾ ، تعني إنْ تَوَجَّه هدفُ الخلاص والنقاء والطهارة باتّجاه رؤية تنفيذ الشروط المطلوبة في مزاوجة المرأة المؤمنة المعنيّة مع مبدأ الخلاص والنقاء والطهارة .. بمعنى إن كانت المرأة – من منظار الخلاص والنقاء والطهارة – أهلاً لذلك ..

.. وكما قلنا فإنَّ تعلّق هذه المرأة هو بساحة النقاء والخلاص والطهارة ﴿ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا ﴾ وهذا ما نراه بورود كلمتي [﴿ لِلنَّبِيِّ ﴾ ، ﴿ ٱلنَّبِيُّ ﴾] في هذه العبارة القرآنيّة ..

.. ولكن .. هذه المرأة بعد أن تُحقِّق شروط الدخول في هذه الساحة .. بعد ذلك .. ستتعامل كأنثى مع شخص محمَّدٍ ﷺ كذكر ، وهنا في هذه الساحة انتقلنا من ساحة الخلاص والنقاء والطهارة التي تريد المرأة دخولها تقرّباً إلى الله تعالى وامتلاكاً لهذا الشرف العظيم ﴿ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا ﴾ ، حيث

التعلُّق كما نرى هو بساحة النبوّة ، انتقلنا إلى ساحة الدنيا والجانب الشخصي بما يعنيه من علاقة بين الرجل (كذكر) والمرأة (كأنثى) ﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ..

فالعبارة ﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ نرى فيها تعلُّق الضمير الكاف في كلمة ﴿ لَّكَ ﴾ بشخص محمَّدٍ ﷺ .. فما نراه أنَّ هذه العبارة لم تأت بالصيغة (خالصةً له من دون المؤمنين) أو (خالصةً للنبيِّ من دون المؤمنين) ، وذلك في صياغة يستمرُّ فيها التعلُّق بساحة النبوّة كما هو الحال في العبارة السابقة لها مباشرة ﴿ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا ﴾ .. أبداً .. لقد انتقلت الصياغة إلى صيغة الجانب الشخصي لمحمَّد ﷺ ، كإنسانٍ ذكرٍ ستكون هذه المرأة كأنثى زوجة له : ﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ..

.. وكون هذه المرأة التي ستدخل هذه الساحة ستصبح بذلك أُمَّاً للمؤمنين ، فمن الطبيعي أن تكون محرَّمةً على هؤلاء المؤمنين .. من هنا نرى دلالة العبارة القرآنيّة : ﴿ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ في قوله تعالى : ﴿ خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ..

.. وهذه المرأة التي اختارت الدخول في هذه الساحة ، محقِّقةً كلَّ الشروط اللازمة لذلك ، ملتزمةً بكلِّ ما يُفرَض عليها نتيجة دخولها لهذه الساحة ، لا يستطيع ﷺ أن يمنعها من ذلك .. فالمسألة تتعلَّق بعطاء الله تعالى لها لتسمو درجاتٍ على سلّم الإيمان ، وتخصُّها هي كإنسانة تودّ التقرّب إلى الله تعالى ..

.. وهنا يُوضَع الشخص محمَّدٌ ﷺ كإنسانٍ في موقفٍ اجتماعيٍّ حرجٍ ، وذلك ما بين أزواجه من جهة ، وبين من تريد الدخول في ساحة التعلّق بصفة الزوجيّة من جهةٍ ثانية ، وبين همز ولمز المنافقين من جهةٍ ثالثة ..... هذا ما دفعه ﷺ إلى تحريم ما أحلَّه الله تعالى له كنبي ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ﴾ .. بمعنى منع

من تريد الدخول في هذه الساحة خوفاً وخشية من الناس ، ومرضاةً لأزواجه اللاتي لا يرغبن بمشاركة غيرهنّ من النساء بشخصه ﷺ ..

.. من هنا نفهم دلالات العبارة القرآنيّة ﴿ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ ﴾ .. فهدف هذا التحريم هو مرضاة أزواجه كلِّ أزواجه وليس بعض أزواجه .. وما حرّمه ﷺ هو مخالفة لما أحلَّه الله تعالى له ، وبالتالي فهذا العمل بحاجة إلى كفَّارة وعودة كاملة عنه .. وهذا ما نقرؤه في العبارة الأولى من الآية الثانية ﴿ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ ﴾ ..

.. والعبارة الأولى من الآية الثانية : ﴿ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ ﴾ نرى فيها صيغة الخطاب موجَّهة لكلِّ المؤمنين ، وليست محصورة في النبيِّ ﷺ كما هو الحال في الآية الأولى .. وكذلك الأمر في كلِّ عبارات الآية الثانية من النصِّ ﴿ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ ۚ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ .. وهذا أمرٌ طبيعيٌّ من جهتين :

١ – الآية الكريمة تخاطب كلَّ المؤمنين بأنَّ الله تعالى قد فرض لهم تحلّة أيمانهم ، لتحمل هذه العبارة القرآنيّة حكماً عامّاً يشمل كلَّ المؤمنين ..

٢ – تُخاطب محمّداً ﷺ كشخصٍ شأنه شأن غيره من المؤمنين المطالَبين بالالتزام بأوامر الله تعالى ، وليس كنبيٍّ .. وهذا أمرٌ طبيعيٌّ ، فالذي حرَّم ما أحلَّه الله تعالى في دخول المرأة المؤمنة ساحة النبوّة والطهارة ، هو محمَّدٌ ﷺ كشخصٍ وليس محمّداً كنبيٍّ أو كرسول ..

.. وهذه المسألة رأينا إسقاطاً لها في مسألة زوجة زيد ..

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ

مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ [الأحزاب : ٣٧]

.. وكنّا قد بيّنا في بحثٍ سابقٍ كيف أنَّ زوجة زيد أرادت دخول هذه الساحة ، متَّجهةً نحو التعلّق بالآخرة ، مبتعدةً عن الدنيا وشهواتها ، ممّا جعلها مقصِّرةً (كأنثى) مع زوجها زيد (كذكر) ، ممّا جعله يريد فراقها ، ممّا جعل محمَّداً ﷺ يقول لزيد ﴿ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ ، وذلك خشيةً من همز الناس ولمزهم ..

.. وهنا قد يقول قائل : كيف يكون الذي حرَّم ما أحلَّ الله تعالى له هو شخص محمَّدٍ ﷺ كبشرٍ دون صفة الخلاص والنقاء والطهارة ، والله تعالى يقول ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾ مخاطباً النبيَّ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ ؟ ..

.. الله تعالى لم يخاطب – في كتابه الكريم – رسولَه ونبيَّه محمّداً ﷺ بأداة النداء ولا مرّة ، فلم يقل تعالى : (يا محمد) أو : (يا أحمد) ، إنّما خاطبه بالصيغ : [[﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ ﴾ ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ﴾ ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴾ ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾]] ، وذلك لحكمةٍ إلهيّةٍ عظيمة تتعلَّق بكونِ النصِّ القرآني نصّاً حاملاً للتاريخ وليس محمولاً بالتاريخ ، وبكون دلالات النصوص القرآنيّة لها إسقاطات في كلِّ زمانٍ ومكان ..

.. خطاب الله تعالى المفترض لِمحمَّدٍ الشخص بالصيغة : (يا محمّد) يعني خطاباً تاريخيّاً خاصّاً بزمن الجيل الأوّل ، ولكنَّ منهجَ الرسالةِ الخاتمة هو فوق التاريخ وفوق خصوصيّات الزمان والمكان ، ويُخاطَبُ فيه كُلُّ إنسانٍ حَسْبَ درجة دعوته لنشر دينِ الله تعالى وحَسْبَ درجةِ نقائه وخلاصه من الذنوب .. من هنا نُدركُ عُمقَ الحكمةِ الإلهيّة بعدمِ وجودِ نصٍّ واحدٍ في كتابِ الله تعالى يُخاطبُ اللهُ تعالى فيه محمّداً ﷺ بأداة النداء (يا) كما خاطبَ رُسُلَه السابقين ..

.. فالإسقاطات في كلِّ زمانٍ ومكان في نفوس المؤمنين ، هي لصفات الخلاص والنقاء والطهارة وحمل الدعوة ، وليس لبشريّة محمَّدٍ ﷺ كشخصٍ في تاريخٍ محدَّد ..

.. وفي كتاب الله تعالى ، بعد أداة النداء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾ نرى عباراتٍ تُخاطب شخص محمَّدٍ ﷺ ، ومن بعده كلَّ مؤمن في كلِّ زمانٍ ومكان ، وذلك بإسقاطٍ يتعلَّق بدرجة تتناسب مع موقعه على سلَّم النبوّة والرسالة الذي قمّته الرسول النبيُّ محمَّدٌ ﷺ ..

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ ..... ﴾ [المائدة : ٤١]

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ ..... ﴾ [المائدة : ٦٧]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ ..... ﴾ [الأنفال : ٦٤ – ٦٥]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ ..... ﴾ [الأنفال : ٧٠]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ ..... ﴾ [التوبة : ٧٣]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَۗ ..... ﴾ [الأحزاب : ١]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱلۡحَيَوٰةَ ..... ﴾ [الأحزاب : ٢٨]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ..... ﴾ [الأحزاب : ٤٥]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ ..... ﴾ [الأحزاب : ٥٠]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ..... ﴾ [الأحزاب : ٥٩]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ ..... ﴾ [الممتحنة : ١٢]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ..... ﴾ [الطلاق : ١]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ..... ﴾ [التحريم : ١]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ..... ﴾ [التحريم : ٩]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ..... ﴾ [المزمل : ١ – ٣]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ..... ﴾ [المدثر : ١ – ٣]

.. فشخص محمَّدٍ ﷺ (ومن بعده كلّ مؤمنٍ بكتاب الله تعالى (حسب درجة إيمانه) يخاطبه الله تعالى بأداة النداء : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾ كشخصٍ حاملٍ لصفة من الصفات المتعلِّقة بهذه الأداة : [[﴿ ٱلرَّسُولُ ﴾ ، ﴿ ٱلنَّبِيُّ ﴾ ، ﴿ ٱلْمُزَّمِّلُ ﴾ ، ﴿ ٱلْمُدَّثِّرُ ﴾]] ..

.. من هنا نرى أنَّ قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾ هو خطابٌ من منظار الخلاص والنقاء والطهارة لشخص محمَّدٍ ﷺ الذي حرَّم ما أحلَّه الله تعالى لساحة النبوّة .. بمعنى : يا محمَّد يا من تتَّصف بصفة الخلاص والنقاء والطهارة ، كيف تحرِّم ما أحلَّه الله تعالى من أجل ساحة الخلاص والنقاء والطهارة ؟ ..

.. فالذي حرَّم ما أحلَّه الله تعالى من أحكامٍ تتعلَّق بساحة الخلاص والنقاء والطهارة هو شخصُ محمَّدٍ ﷺ الذي يتربَّع على قمّة محور الخلاص والنقاء والطهارة ..

.. وبداية الآية الثالثة ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا ﴾ تُبيِّن لنا أنَّنا أمام مسألة أُخرى ، لها حدودها التي تميِّزها عن المسألة المحمولة بالآية الأولى .. فلا إشـــارة في هذه الآية الكريمة (وما يتلوها) إلى أنَّها شرحٌ لما حرَّمه ﷺ على نفسه في الآية الأولى ..

.. وكلُّ الضمائر في الآية الثالثة تتعلَّق بزوجة واحـــدة .. ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ .. فالضمائر المتعلِّقة

بالكلمات [[﴿ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ ﴾ ،، ﴿ نَبَّأَتْ ﴾ ،، ﴿ نَبَّأَهَا ﴾ ،، ﴿ قَالَتْ ﴾]] تعود لزوجة واحدة ..

.. إذاً .. هناك زوجة ، أسرَّ لها النبيُّ ﷺ حديثاً ، بعد ذلك نبَّأت هذه الزوجة بهذا الحديث ، وأظهر الله تعالى نبيَّه ﷺ على ما نبَّأت به ، بعد ذلك عرَّف النبيُّ ﷺ بعضه وأعرض عن بعض ، بعد ذلك نبَّأها النبيُّ ﷺ به ، بعد ذلك قالت من أنبأك هذا ، بعد ذلك قال نبَّأني العليم الخبير .. هذا هو ترتيب عناصر هذه المسألة ..

.. والآية الثالثة بهذه الصيغة التي ترد بها ، ترسم صورة العلاقة بين قمّة محور الرسالة والنبوّة ﴿ ٱلنَّبِيُّ ﴾ وبين أزواجه ، كعلاقة هي أسوة وسقفٌ ومثلٌ للعلاقة بين الزوج وزوجته ، وبحيث تكون إسقاطات هذه العلاقة في كلِّ زمانٍ ومكان دون هذه القمّة ، بمعنى أنَّ المرأة المؤمنة عليها أن تنظر إلى هذه العلاقة كقمّة وكسقف محاولةً تمثّلها بإسقاطٍ يتعلَّق بدرجة إيمانها ..

.. وفي العبارة القرآنيّة : ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا ﴾ ، نرى كلمة : ﴿ أَسَرَّ ﴾ ، وهي بمعنى جعل الأمر سرّاً ، أي دون العلن ..

﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ ﴾ [الرعد : ١٠]

﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ [الملك : ١٣]

.. وما أسرَّه النبيُّ ﷺ إلى بعض أزواجه هو حديث : ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا ﴾ .. وما نراه أنَّ كلمة ﴿ حَدِيثًا ﴾ تأتي بصيغة النكرة ، وأنَّ الذي أسرّه هو ﴿ ٱلنَّبِيُّ ﴾ وليس الشخص محمّداً ﷺ .. بمعنى أنَّ الحديث المعني هو في ساحة الخلاص والنقاء والطهارة ، وفي ما تتعلَّق به هذه الزوجة ضمن إطار هذه الساحة ..

.. فَمَن تتعلَّق بصفة الزوجيّة مع ساحة النبوّة بما تعنيه من نقاء وصفاء وطهارة ، لا بدَّ أن تتفاعل مع ما يحمله ﴿ ٱلنَّبِيُّ ﴾ ﷺ من صفات ، ولا بدَّ أن تسمع منه أحاديث كثيرة ، منها ما هو في ساحة السرِّ دون العلن ..

.. وفي تأخير كلمة ﴿ حَدِيثًا ﴾ : ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا ﴾ ، مع ورودها بصيغة النكرة ، إشارةٌ إلى أنَّ المُراد من أحكام هذا النصِّ هو الكليّات التي على كلِّ زوجة أن تنظر إليها في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ، كنموذج تسعى لتمثّله وكسقفٍ تسير تحته ، وليس المراد حدثاً تاريخيّاً محدَّداً بعينه كما تذهب تفاسيرنا الموروثة ..

.. والحديث المعني والوارد بصيغة النكرة ﴿ حَدِيثًا ﴾ يشمل مساحةً واسعة ، فيها ما يتعلَّق بكتاب الله تعالى ..

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ ﴾ [الزمر : ٢٣]

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الجاثية : ٦]

.. وفيها ما يتعلَّق بأمور الدنيا ..

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ﴾ [النساء : ١٤٠]

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٢١]

.. ولكنْ .. كون الأمر يتعلَّق بسرٍّ أسرَّه النبيُّ ﷺ ، فهذا يعني أمراً خاصّاً ليس من ظاهر أمر الرسالة التي أنزلها الله تعالى للبشريّة جمعاء .. فالرسول ﷺ كحامل لمنهج الله تعالى لا يُخفي أبداً أيَّ جانبٍ من جوانب الرسالة التي يأمره الله تعالى بإبلاغها للناس ..

ولذلك .. فهذا النصُّ الكريم جاء بأمرٍ يحمل كليّاتٍ دون أيِّ تفصيلٍ لأيِّ جزئيّة ، فما يتعلَّق من هذه القصّة المحمولة بهذا النصِّ بجانب الرسالة ، هو المبدأ الذي يحمله هذا النصُّ الكريم ، كإطارٍ للعلاقة المثلى للزوجة المتعلِّقة مع قمّة محور الخلاص والنقاء والطهارة ..

.. وعدم ذكر الله تعالى لحيثيّات هذا الحديث الذي أسرَّه إلى بعض أزواجه ، وعدم ذكر الزوجة المعنيّة ، هو لحكمة تتعلَّق بالمبدأ العام والأحكام والتفاعل بين من ارتضت التعلّق بالزوجيّة مع قمّة محور الخلاص والنقاء والطهارة وبين هذه القمّة ، أيّاً كانت ، ولا يهمُّ في هذه الأحكام العامّة من هي ، المهم هو الأحكام كمبدأ لهذه العلاقة ، لتكون سقفاً تسير تحته وتنظر إليه كلُّ زوجة في كلِّ زمانٍ ومكان ..

.. وفي كتاب الله تعالى لم يُذْكَر اسمُ أيِّ زوجة من أزواج النبيِّ ﷺ ، بل لم يُذْكَر اسمُ أيِّ أنثى إلاَّ اسم ﴿ مَرْيَمَ ﴾ عليها السلام ، كونها لها خصوصيّة تميّزها عن باقي النساء منذ بداية الخليقة إلى قيام الساعة .. وفي كلِّ ذلك حكمةٌ إلهيّةٌ عظيمة ، فأيُّ حكمٍ في أيِّ نصٍّ قرآني هو فوق التاريخ ، وخصوصيّة ﴿ مَرْيَمَ ﴾ عليها السلام لن تتكرَّر إلى قيام الساعة ، فلم ولن تلد أنثى دون ذكر إلاَّ ﴿ مَرْيَمَ ﴾ عليها السلام ، إضافة إلى أنَّها أطهر امرأة على وجه الأرض اصطفاها الله تعالى نفساً وجسداً ، وذلك منذ بداية الخليقة إلى قيام الساعة ..

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٤٢]

.. إذاً .. في علاقة زوجة تتعلَّق بصفة الزوجيّة مع رمز الخلاص والنقاء والطهارة ، أسرَّ لها رمز الخلاص والنقاء والطهارة حديثاً لا يريد منها أن تعلنه ، بمعنى أسرَّ لها حديثاً

يتعلّق بها كخصوصيّة لها كونها زوجاً في ساحة النبوّة : ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا ﴾ ..

وما نراه في هذه الآية الكريمة أنَّ سمت الخطاب هو من منظار وصف الغائب وليس المخاطَب ، فالآية ليست على الشكل : (وإذ أسررت إلى بعضِ أزواجِك حديثاً فلمّا نبّأت به وأظهره الله عليك عرَّفتَ بعضَه وأعرضتَ عن بعض فلمَّا نبّأها به قالت من أنباك هذا قلت نبّأني العليم الخبير) ، إنّما هي : ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ ..

.. فاقتران سمت الغائب في هذه الآية الكريمة مع صفة النبوّة ، مع ورود أحكامٍ كليّةٍ عامَّة دون أيِّ تفصيلٍ جزئيٍّ أو تخصيص ، كلُّ ذلك يؤكِّد لنا أنَّنا أمام أحكامٍ عامَّةٍ ترسم لوحةً لصورة العلاقة الزوجيّة في قمّة محور الخلاص والنقاء والطهارة ..

.. والعبارة القرآنيّة : ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ﴾ نراها تبتدأ بالفاء ﴿ فَلَمَّا ﴾ ، وفي هذا إشارة إلى عدم الالتزام بحفظ ما أسرَّه قمّة محور الخلاص والنقاء والطهارة .. فبدلاً من الالتزام بهذا السرِّ والحفاظ عليه نبأت به ..... وكلمة ﴿ نَبَّأَتْ ﴾ تعني أخبرت وأعلنت ..

﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ ﴾ [آل عمران : ٤٩]

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ﴾ [يوسف : ٣٧]

وما نراه في صياغة العبارة القرآنيّة ﴿ نَبَّأَتْ بِهِۦ ﴾ هو ورود كلمة ﴿ بِهِۦ ﴾ .. فهي نبأت بواسطة ما أدركته ممّا أسرَّه النبيُّ ﷺ لها .. بمعنى أخبرت وأعلنت ما أدركته من خلال ما أسرَّه ﷺ إليها ..

.. إذاً .. الزوجة المتعلّقة بعلاقة زوجيّة مع رأس محور النقاء والخلاص والطهارة أخبرت وأعلنت بما أدركته ممّا أسرَّه لها النبيُّ ﷺ .. وبعد أن نبّأت بذلك أظهر الله تعالى نبيّه على ما نبّأت به : ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ﴾ ..

.. وكلمة ظَهَرَ تعني بان وعلا بما لا يمكن إخفاؤه ، وذلك بدلالة تشمل مقابلةً لكلمة بطن ..

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأنعام : ١٥١]

﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴾ [الكهف : ٩٧]

﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ [النور : ٣١]

.. وأظهر الأمر أبانه وأعلاه (جعله ظاهراً) لدرجة لا يمكن أن يكون مخفيّاً ..

﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ [غافر : ٢٦]

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾ [الصف : ٩]

.. إذاً .. العبارة القرآنيّة ﴿ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ تعني : أبان الله تعالى نبيَّه ﷺ على ما نبَّأت به هذه الزوجة ، وذلك بعد أن نبَّأت به ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ ..

فالضمير الهاء في كلمة ﴿ عَلَيْهِ ﴾ يعود إلى ما نبَّأت به هذه الزوجة ..

.. والعبارة القرآنيّة ﴿ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ تبيِّنُ لنا أنَّ هذا الإظهار ليس بقدرة النبيِّ ﷺ ، وإنّما من الله تعالى ، ففاعل هذا الأمر هو الله تعالى ..

.. والعبارة القرآنيّة : ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ﴾ تصوُّر مقدِّمةً لنتيجةٍ تصوِّرها العبارة القرآنيّة : ﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ﴾ ..

.. وَعَرَفَ الشيء أدرك هويّته دون إنكار ..

﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾ [يوسف : ٥٨]

﴿ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [يوسف : ٦٢]

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمُنكَرَ ﴾ [الحج : ٧٢]

.. وعرَّف الشيءَ لغيره جعل غيرَه يُدرك هويّته دون إنكار ..

﴿ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝٥ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ [محمّد : ٥ – ٦]

.. فكلمة ﴿ عَرَّفَهَا ﴾ في الآية الكريمة ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ تعني أنَّ الله تعالى بيَّن لهم في حياتهم الدنيا هويّة الجنّة من خلال آياته الكريمة .. وهذا يختلف عن العلم ، فالعلم يعني الوقوف على حقيقة الأمر .. لذلك هذه الجنّة التي نعرفها في حياتنا الدنيا لأنَّ الله تعالى ﴿ عَرَّفَهَا ﴾ لنا في كتابه الكريم ، لا نعلم حقيقتها – في الحياة الدنيا – علماً نقف فيه على حقيقة ما أُخفي لأصحابها من قرّة أعين ..

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة : ١٧]

.. ولكنْ .. في قوله تعالى ﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ﴾ لم يبيِّن الله تعالى لنا في ظاهر الصياغة اللغويّة لهذه العبارة لِمَنْ عرَّف النبيُّ ﷺ ما أظهره الله تعالى عليه .. بمعنى لم ترد كلمة في ظاهر هذه الصياغة تبيّن لنا مَنْ هو الذي عرَّف له النبيُّ ﷺ ما أظهره الله تعالى عليه ..

ففي تعريف الله تعالى للجنّة في كتابه الكريم للمؤمنين في حياتهم الدنيا ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ نرى ورود كلمة ﴿ لَهُمْ ﴾ .. لكنْ .. في العبارة القرآنيّة : ﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ﴾ ، لِمَنْ عرَّف بعضه وعمَّن أعرض به عن بعض ؟ ..

.. ولمّا كان الله تعالى هو الذي أظهر نبيَّه ﷺ على ما نبّأت به ، والمسألة بين النبيِّ ﷺ وبين الله تعالى ، وليست بين النبيِّ ﷺ وغيره من البشر ، والنبيُّ ﷺ لم يعرف أنَّها نبّأت به إلاَّ من الله سبحانه وتعالى ، ولما كان إظهار الله تعالى له على ما نبّأت به يعني إخباره بما نبَّأت به من حق وباطل ، فإنَّ قوله تعالى ﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ﴾ يعني : بيَّن هويّة ما نبّأت به من حق وباطل ، فالعبارة ﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ ﴾ تعني صدَّق بعضَ ما نبّأت به ، والعبارة القرآنيّة ﴿ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ﴾ تعني أنكرَ بعض ما نبّأت به ، فما نبّأت به منه ما هو حق ولذلك صدَّقه : ﴿ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ ﴾ ، ومنه ما هو باطل ولذلك أنكره : ﴿ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ﴾ ، وكلُّ ذلك بينه وبين الله تعالى .. فكما قلنا لم يبيِّن لنا النصُّ في ظاهر صياغته اللغويّة لِمَنْ عرَّف ﷺ هذا الأمر ، ولا ذكر في هذه الآية الكريمة إلاَّ لله تعالى وللنبيِّ ﷺ ولهذه الزوجة ..

.. وما نراه في هذه الصياغة اللغويّة أنَّ العبارة القرآنيّة ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ ﴾ ليست متعلّقةً بالحوار بين هذه الزوجة وبين

قمّة محور الخلاص والنقاء والطهارة ، كما هو الحال في العبارات السابقة لها في هذه الآية الكريمة ، ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا ﴾ ، وكما هو الحال أيضاً في العبارات التالية ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ ..

.. إذاً .. هذه الزوجة نبَّأت بهذا السِّرِّ ، في الوقت الذي كان عليها ألاَّ تفعل ذلك ، وإنباؤها بهذا السِّرِّ للآخرين لم يسمع به النبيُّ ﷺ من الآخرين ، أو منها ، إنّما أظهره الله تعالى عليه ، بمعنى لم يعرف ذلك من الآخرين أو منها ، إنّما عرف ﷺ ذلك من الله سبحانه وتعالى ..

.. العبارة التالية مباشرةً ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ ، نراها تبدأ بالفاء ، وفي ذلك استمرارٌ مباشر لتفاعل هذه المسألة .. ونرى أيضاً أنَّ النبيِّ ﷺ نبَّأ هذه الزوجة ليس بالسِّرِّ ، إنّما بإنبائها لهذا السِّرِّ الذي كان عليها ألاَّ تبوح به ، فكلمة ﴿ بِهِۦ ﴾ في العبارة القرآنيّة ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ ﴾ تتعلَّق بإنبائها لهذا السِّرِّ ..

.. وما نراه في هذه العبارة القرآنيّة ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ ﴾ هو ورود كلمة ﴿ بِهِۦ ﴾ ، بمعنى أخبرها بواسطة إنبائه لها بما نبّأت به .. وما نراه أيضاً هو ورود كلمة ﴿ نَبَّأَهَا ﴾ وليس كلمة (أَنْبَأَهَا) ..

.. كلمة نبَّأ المتعدّية بالتضعيف على وزن فعَّل ، تختلف دلالاتها عن كلمة أنبأ المتعدّية بالهمز .. ولو عدنا إلى كتاب الله تعالى لرأينا أنَّ كلمة نبَّأ تعني الإخبار عن الأمر بدخولٍ في حيثيّاته ، وبالإخبار عن مكنوناته ، بمعنى ليست فقط الإخبار عن ظاهره ، وإنّما عن ظاهرة وعن حيثيّاته .. ولذلك رأينا كيف أنَّ العبارة القرآنيّة ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ﴾ ترد فيها كلمة ﴿ نَبَّأَتْ ﴾ متعلّقةً بالزوجة ناقلةً خبر هذا السرِّ عبر ما أدركته وبدخولٍ في عمقيه الظاهر والباطن ، بمعنى ناقلةً خبرَ

هذا السرِّ حسب ما أدركت ، وناقلةً تأويله حسب ما أدركت .. ولذلك رأينا كيف أنَّ النبيَّ ﷺ عرَّف بعضَ ما نبَّأت به وأعرض عن بعضه ..

.. ولو تتبّعنا في كتاب الله تعالى الصيغ المختلفة لكلمة نبَّأ لرأينا ذلك .. ومن هذه الصيغ ..

﴿ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : ٦٤]

﴿ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ ﴾ [التوبة: ٩٤]

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس : ١٨]

﴿ وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِى رَبِّى ۚ ﴾ [يوسف : ٣٦ – ٣٧]

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴾ [يوسف : ٤٥]

﴿ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [لقمان : ١٥]

﴿ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة : ١٣]

.. بينما كلمة أنبأ نراها تأخذ جانب نقل الخبر دون الدخول في تأويله ، كالإنباء عن اسم الشيء دون الدخول في عمقه الباطن ..

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة : ٣١ – ٣٣]

.. من هنا نرى عظمة الصياغة القرآنيّة : ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ .. فالنبيُّ ﷺ أخبرها بظاهر وباطن ما أخبرت به : ﴿ نَبَّأَهَا ﴾ ، وذلك في حدود هذه المسألة ، ولذلك نرى ورود كلمة ﴿ بِهِۦ ﴾ في العبارة القرآنيّة : ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ ﴾ ..

.. بينما هي تعاملت مع ظاهر ما سمعت منه سائلةً عن نقل ظاهر الخبر إليه ، دون التعرّض لتأويله الباطن .. ولكن .. من خلال صيغة سؤالٍ أكثر اتّساعاً في ساحة الظاهر ، بدليل عدم ورود كلمة ﴿ بِهِۦ ﴾ .. بمعنى اتّسع سؤالها ليشمل ما تفاجأت به عن هذا الإخبار .. وهذا ما تصوِّره العبارة : ﴿ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ﴾ ..

.. وكانت إجابته ﷺ متضمّنةً للعمقين الظاهر والباطن : ﴿ نَبَّأَنِىَ ﴾ ، ودون التعلّق بكلمة : ﴿ بِهِۦ ﴾ ، لتشمل ساحةً أوسع من حدود هذه المسألة : ﴿ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْخَبِيرُ ﴾ ، كون ذلك هو من الله تعالى : ﴿ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ ..

.. والعبارة القرآنيّة ﴿ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ ﴾ تصوِّرُ مقدِّمة لقولها ﴿ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ﴾ .. وقولها ﴿ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا ﴾ تصوِّرُ مقدّمة لقوله ﷺ ﴿ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ ..

.. وفي هذا السياق لا بدَّ من الوقوف عند الكيفيّة التي نبّأ الله تعالى بها نبيَّه ﷺ ، كيف أنّها تختلف عن وحي النصِّ القرآني ..

.. الوحي – في الرسالة الخاتمة – هو وحي القرآن الكريم ... فحتى وَحْي القصص نراه عبر القرآن الكريم ..

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [يوسف : ٣]

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ [يوسف : ١٠٢]

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ [آل عمران : ٤٤]

﴿ تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ﴾ [هود : ٤٩]

وحتى وَحْي الله تعالى لرسوله ﷺ بمسألة الجن إنّما كان عبر القرآن الكريم حصراً ..

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا ..... ﴾ [الجن : ١ – ٢]

.. وإنْ كان هناك وحيٌ آخر مع وحي كتاب الله تعالى ، كما يزجر عابدو أصنام التاريخ ، فكيف بنا أن نفهم قولَه تعالى ..

﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ [الكهف : ٢٧]

.. فالذي يُؤْمَر ﷺ بتلاوته من الوحي ﴿ وَاتْلُ ﴾ هو ما أُوحي إليه من القرآن الكريم ﴿ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ﴾ ، وليس أمراً آخر .. وهذا الوحي الذي يُؤمَر ﷺ (ومن بعده كلُّ حاملٍ لكتاب الله تعالى) بتلاوته ، لا يوجد من دونه للنبيِّ ﷺ ولغيره مرجع ولا مآل ﴿ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾ ..

فحصر مرجعيّة الرسول ﷺ بالقرآن الكريم دون أيِّ وحيٍ آخر ، ينفي وجود وحيٍ آخر (في ساحة الرسالة) مستقلٍ عن كتاب الله تعالى ، كما يفتري عابدو أصنام التاريخ ، وإلاَّ ما الفائدة من وحيٍ في ساحة الرسالة لا يكون مرجعاً ومآلاً حتّى للرسول ﷺ ذاته ؟ .. وقد بيّنت ذلك في أبحاث سابقة بما فيه الكفاية ..

.. ولكن .. هذا في ساحة الرسالة ، أي في ساحة المنهج الموجود بين أيدي البشر ، حيث يُطالبون باتّباعه في كلِّ زمانٍ ومكان .. وهذا أمرٌ له حدوده المختلفة عن حدود الشفافيّة والرؤية الصادقة والإلهام من الله تعالى ، فهذه الأمور (الشفافيّة والرؤية الصادقة والإلهام) تتعلَّق بساحة الخلاص والنقاء والطهارة ، وهي علاقة روحيّة خالصة بين الإنسان وبين الله تعالى ..

.. وبالتأكيد أنَّ الله تعالى نبّأ نبيَّه ﷺ بهذه المسألة خارج وحي القرآن الكريم ، فالمسألة هي في ساحة النبوّة ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا﴾ ، وجزئيّات ما أسرَّه النبيُّ ﷺ من حديث لم تُذكَر ، لأنَّ المسألة (كرسالة) ليست متعلِّقة بهذه الجزئيّات كما بيّنا ..... كرسالة يُطلَب اتِّباعها لا يهمّنا معرفة جزئيّات الحديث الذي أسرّه النبيُّ ﷺ إلى بعضِ أزواجه ، ما يهمّنا هو الأحكام الواردة في هذا النصِّ الكريم لعلاقة قمّة محور الخلاص والنقاء والطهارة مع من تتعلَّق معه بصفة الزوجيّة في هذه الساحة ، وذلك كسقفٍ تسير تحته كلُّ زوجة مؤمنة في علاقتها مع زوجها في كلِّ زمانٍ ومكان ، وقد بيّنا ذلك بما فيه الكفاية ..

.. إذاً .. ما نبّأ الله تعالى به نبيّه ﷺ في هذه المسألة هو خارج وحي الرسالة الذي هو فقط وفقط لا غير كتاب الله تعالى (القرآن الكريم) ، وهو رؤية صادقة نبَّأ الله تعالى بها النبيَّ ﷺ بهذه المسألة ..

.. وتأتي بداية الآية الرابعة في هذا النصِّ الكريم بصيغة جديدة .. ففي حين كانت صيغة الخطاب في الآية الثالثة مفردة ومتعلِّقةً بزوجة ، ومن سمت خطاب الغائب ، نرى

صيغة الخطاب في بداية الآية الرابعة : ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ ﴾ بصيغة المثنّى ، ومن سمت منظار المخاطَب ..

.. وبداية هذه الآية الكريمة هي كلمة : ﴿ إِن ﴾ كشرطٍ قد يتحقَّق وقد لا يتحقَّق ، بمعنى تقديم عرض لتوبة قد تحصل وقد لا تحصل ، وفي ذلك إشارة إلى أنَّنا أمام أحكامٍ عامَّة ، وتفاعلٍ حيٍّ معها ، ولسنا أمام مجرّد سردٍ تاريخي لحدثٍ في الجيل الأوَّل ..

.. وشرط التوبة : ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ ﴾ يبيّن لنا العودة عن خطأ كان من المفروض ألاَّ يكون ، ويعني الالتزام بعدم العودة إلى هذا الخطأ ..

.. إذاً .. نحن أمام شخصين اثنين بدليل صيغة المثنّى في الكلمات : [[﴿ تَتُوبَآ ﴾ ،، ﴿ قُلُوبُكُمَاۖ ﴾ ،، ﴿ تَظَٰهَرَا ﴾]] .. وهذان الشخصان سبق لهما ذكر في هذا السياق ، وسبق لهما ذكر لما تترتَّب عليه توبة ، فذكر التوبة في العبارة ﴿ إِن تَتُوبَآ ﴾ هو لحكمة لها ما تتعلَّق به في السياق السابق ..

.. ولو نظرنا في السياق السابق لرأينا أنَّه يتعلَّق بالنبيِّ ﷺ وزوجة من أزواجه :

﴿ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴾ ..

.. وكما قلنا ، سمت الخطاب هو من منظار الغائب : [[﴿ أَسَرَّ ﴾ ، ﴿ أَزۡوَٰجِهِۦ ﴾ ، ﴿ نَبَّأَتۡ ﴾ ، ﴿ عَرَّفَ ﴾ ، ﴿ وَأَعۡرَضَ ﴾ ، ﴿ نَبَّأَهَا ﴾ ، ﴿ قَالَتۡ ﴾ ، ﴿ قَالَ ﴾]] .. والنصُّ يتعلَّق بالنبيِّ ﷺ ، وليس بشخصِ محمَّدٍ : ﴿ وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا ﴾ ..

من هنا نرى أنَّ الانتقال من هذه الآية إلى بداية الآية التالية لها بخطابٍ سمته المخاطَب ، وبصيغة المثنّى ، هو انتقال إلى الجانب الشخصي لمحمَّدٍ ﷺ ولهذه الزوجة : ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ ﴾ ، فهذه الصيغة تتعلَّق بمسألةٍ يريد الله تعالى حدوثها وهي التوبة والعودة إلى الالتزام بأحكام الله تعالى ، بمعنى أنَّها لم تحدث ، فلو حدثت لما وردت العبارة القرآنيّة ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ ﴾ ..

.. وهذا التحوُّل من صيغة الغائب إلى صيغة المخاطَب ، كتحوُّل من التعلُّق بصفة الخلاص والنقاء والطهارة إلى الجانب البشري لشخصِ محمَّدٍ ﷺ ، رأينا مثيلاً له في صياغة العبارة القرآنيّة : ﴿ وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ ﴾ ، وبيّنا ذلك بما فيه الكفاية ..

.. وفي الآية الكريمة التالية نرى أنَّ التحوُّل من صيغة المخاطَب إلى صيغة الرسالة ، هو تحوُّلٌ من مخاطبة الجانب الشخصي لمحمَّدٍ ﷺ إلى التعلُّق بصفة الرسالة ..

﴿ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ ﴾ [البقرة : ١٤٣]

فالعبارة القرآنيّة ﴿ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ ﴾ تخاطب شخص محمَّدٍ ﷺ بعيداً عن جانب الرسالة ، وذلك في التوجّه إلى بيت المقدس كاجتهادٍ بشريٍّ منه موافقةً لأهل الكتاب ، ريثما يترل النصُّ القرآنيُّ الذي يحدِّد سمت التوجّه في الصلاة .. ولذلك نرى أنَّ الله تعالى يقول ﴿ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ ﴾ ، ولم يقل (التي كان الرسول عليها) .. بينما في العبارة القرآنيّة ﴿ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ ﴾ نرى انتقالاً من صيغة المخاطَب (شخص محمَّدٍ ﷺ) إلى صيغة الغائب المتعلِّقة بالرسول ، بمعنى : من يتّبع الأمر الإلهي النازل من السماء كنصٍّ قرآنيٍّ يُحدِّد التوجّه إلى المسجد الحرام ، فالله تعالى لم يقل : (إلاَّ

لنعلم من يتّبعك) بصيغة المخاطَب كما هو الحال في العبارة ﴿ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيۡهَآ ﴾ ، إنّما يقول جلَّ وعلا ﴿ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ ﴾ ..

.. إذاً .. الانتقال من صيغة المفرد وصيغة الغائب المتعلِّقة بالنبيِّ ﷺ كصفة خلاص ونقاء وطهارة ، مع عدم ورود ذكرٍ إلاَّ للنبيِّ ﷺ ولزوجة تتعلَّق معه في قمّة محور الخلاص والنقاء والطهارة ، وذلك في الآية الثالثة ، إلى صيغة المخاطَب والمثنّى في بداية الآية الرابعة .. كلُّ ذلك يؤكِّد الانتقال إلى مخاطبة الجانب الشخصي لمحمَّدٍ ﷺ ولهذه الزوجة : ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ ..... ﴾ ..

والعبارة القرآنيّة ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ ..... ﴾ مكوَّنة من مقدِّمة ونتيجة .. المقدّمة هي ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ، ونتيجتها هي : ﴿ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ ﴾ .. هذا ما تنطق به الصياغة اللغويّة لحروف هذه العبارة القرآنيّة ..

.. أمّا القول بأنَّ جملة فعل الشرط ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ليس لها جواب ، وجوابها محذوف وتقديره : يتب عليكما ، فهو قول غير صحيح ، وهو قفزٌ فوق ظاهر الصياغة اللغويّة لهذه العبارة القرآنيّة ، نتيجة فرض تصوّرات مسبقة الصنع وتفاسير موروثة ما أنزل الله تعالى بها من سلطان ..

.. وكلمة ﴿ صَغَتۡ ﴾ تعني : مالت وأنصتت .. ولم يذكر النصُّ الكريم في ظاهر صياغته اللغويّة إلى ماذا صغت .. ولكنْ .. كون العبارة ﴿ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ ﴾ متعلِّقة بالتوبة ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ، وكون التوبة تعني رجوعاً إلى الحق ، فإنَّ الحقَّ والالتزامَ بمرادِ الله تعالى في أحكام كتابه الكريم ، هو ما ستصغي إليه قلوبهما إنْ تابا إلى الله تعالى ..

وما ذهبت إليه التفاسير الموروثة من أنَّ العبارة القرآنيّة : ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ تعني زاغت وعدلت ومالت عن الحق ، هو تفسيرٌ غير صحيح ، فالعبارة القرآنيّة : ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ مكوَّنة من مقدِّمة ونتيجة ، المقدِّمة : ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ، والنتيجة ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ ، فكيف تكون نتيجة التوبة ميلاً عن الحقِّ ؟!!! ..

.. من هنا نرى كيف أنَّ الفهم غير السليم لدلالات هذه العبارات القرآنيّة هو ما قادهم إلى القول بأنَّ جملة فعل الشرط : ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ليس لها جواب ، وجوابها محذوف وتقديره : يتب عليكما ، وذلك في الوقت الذي نرى فيه أنَّ النصَّ القرآني : ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ وحدةٌ مترابطةٌ مكوَّنةٌ من مقدِّمة هي : ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ، ومن نتيجة هي : ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ ، وأنَّ حرف الفاء في كلمة ﴿ فَقَدْ ﴾ يربط المقدِّمة بنتيجتها ..

.. وتكملة الآية الكريمة تصوِّرُ احتمال عدم توبتهما وما يترتَّب عليه ، أي بقاءهما على حالهما ، أي الاستمرار لما رأيناه في السياق السابق .. فهي تحمل شرطاً جديداً واحتمالاً آخر مقابلاً للاحتمال الأوَّل ..

﴿ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾

.. وهنا نحن أيضاً أمام جملة شرطيّة مكوَّنة من مقدِّمة ونتيجة ، المقدّمة هي : ﴿ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ ﴾ ونتيجتها هي : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ

﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ ، ونرى هنا أيضاً أنَّ حرف الفاء في كلمة ﴿ فَإِنَّ ﴾ يربط المقدِّمة بنتيجتها ..

.. والقول – هنا أيضاً – بأنَّ جملة فعل الشرط ﴿ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ ﴾ ليس لها جواب ، وجوابها محذوف وتقديره : يجد ناصراً ، هو قول غير صحيح ، وناتج عن فرض تصوّرات مسبقة الصنع على دلالات العبارات القرآنيّة ، نتيجة تفاسير تاريخيّة ما أنزل الله تعالى بها من سلطان ..

.. وورود العبارة القرآنيّة : ﴿ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ ﴾ بهذه الحيثيّة من الصياغة ، تبيِّنُ لنا أنَّ كلاً منهما علا وبان (على مبدأ الخلاص والنقاء والطهارة) في علاقته وتفاعله مع الآخر .. فكلمة ﴿ عَلَيْهِ ﴾ تعود لمبدأ الخلاص والنقاء والطهارة .. بمعنى : إن لم ينته الاستمرار وإن لم تحصل العودة والتوبة (من قِبَل شخصِ محمَّدٍ ﷺ وشخص الزوجة المعنيّة) عمَّا بيَّنه النصُّ في السياق السابق من التظاهر على الأحكام المتعلِّقة بساحة الخلاص والنقاء والطهارة ..

.. ما وقع من شخص الزوجة المعنيّة ويجب أن تعود عنه ، بيّناه في شرح الآية السابقة بما فيه الكفاية .. وما وقع من شخصِ محمَّدٍ ﷺ ورد ذكره في الآية الأولى من هذا النصِّ من تحريم ما أحلَّه الله تعالى له ابتغاء مرضاة أزواجه ، وذلك خشية الناس وخشية همزهم ولمزهم ، وشرحنا ذلك بما فيه الكفاية .. وفي تلك الحالتين نرى تفاعلاً مشتركاً في هذه المسائل ما بين شخصِ محمَّدٍ ﷺ وبين الزوجة المتعلِّقة معه بقمّة محور الخلاص والنقاء والطهارة .. من هنا نرى دلالة كلمة ﴿ تَظَٰهَرَا ﴾ بهذه الصيغة ..

.. إذاً .. قوله تعالى : ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ ، نرى

فيه مقدِّمتين ونتيجتين .. المقدّمة الأولى هي : ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ ونتيجتها هي : ﴿ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ ﴾ .. والمقدّمة الثانية هي : ﴿ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ ﴾ ونتيجتها هي : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ ..

.. المقدِّمة الأولى ونتيجتها تعني توبةً وعودة بقلوبهما إلى الحق : ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ ﴾ ، وهذا يقابله المقدِّمة الثانية ونتيجتها ، والتي تعني استمراراً في التظاهر على النبيِّ كمبدأ للخلاص والنقاء والطهارة ، دون توبة وعودة عن ذلك : ﴿ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ ..

.. وما نراه أنَّ المقدِّمة الثانية تبدأ أيضاً بكلمة ﴿ وَإِن ﴾ كما هو حال المقدِّمة الأولى ، لتعني احتمال الاستمرار في الأمر (التظاهر) واحتمال وقوع نقيضه (التوبة) في الوقت ذاته .. وفي كلِّ ذلك دليلٌ على أنَّ المسألة ليست مجرَّد سردٍ تاريخيٍّ لقصّةٍ تاريخيّةٍ بعينها ، إنَّما هي مسألة تبيانٍ للأحكام في علاقة الزوجة المتعلِّقة مع قمّة محور الخلاص والنقاء والطهارة ..

.. إذاً .. في قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ ﴾ ، فإنَّ الضمير الهاء في الكلمتين : [[﴿ عَلَيۡهِ ﴾ ، ﴿ مَوۡلَىٰهُ ﴾]] يعود إلى النبيِّ ﷺ كصفة خلاص ونقاء وطهارة ، وليس لشخص محمّد ﷺ كبشر له هواجسه النفسيّة وشهوته وكلّ ما يتعلَّق به كبشر ، في حين أنَّ الضمير المثنّى في الكلمات : [[﴿ تَتُوبَآ ﴾ ، ﴿ قُلُوبُكُمَاۖ ﴾ ، ﴿ تَظَٰهَرَا ﴾]] يعود إلى شخصِ محمَّدٍ ﷺ وشخص الزوجة المعنيّة في هذا النص ..

.. وما نراه في قوله تعالى : ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ أنَّ كلمة : ﴿ قُلُوبُكُمَا ﴾ ترد بصيغة مثنى الجمع ، بمعنى لشخصِ محمَّدٍ ﷺ قلوب ، ولشخص الزوجة المعنيّة قلوب ، فكيف يكون ذلك والله تعالى يقول : ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾ [الأحزاب : ٤] ؟!!! ..

.. القلب هو مكمن إرادة الإنسان وتوجّهه ، ولا يعني مجرَّد العضلة الماديّة التي تنبض داخل جسم الإنسان ، فقد يكون الإنسان مريضاً في قلبه دون أن يكون للعضلة التي تضخُّ الدّم في جسمه أيُّ تعلّقٍ بمرضٍ مادِّي : ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة : ١٠] ، فالقلب في كتاب الله تعالى يصف مسألةً معنويّةً تتعلّق بمكمن إرادة الإنسان وتوجّهه ..

.. وقد يكون للإنسان عدّة توجّهات في الوقت ذاته ، بمعنى له رؤى مختلفة في قضيّة ما .. ولكنَّ هذا الإنسان حينما يمشي ويسير في هذه القضيّة لا تكون له إلاَّ إرادة واحدة ، بمعنى توجّه واحد لا ينافسه توجّه آخر ، هذا عندما يجمع أمره ويمشي باتّجاه ما يريد ، وهذا ما تنطق به العبارة القرآنيّة ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾ ، فكلمة ﴿ لِرَجُلٍ ﴾ لم تُذْكَر عبثاً ، فالمتحرِّك والساعي بقصده وإرادته في أيِّ قضيّة لا يُوجد له إلا توجُّهٌ واحد محمولٌ على إرادة واحدة ، وإلاَّ لما عزم أمره على ذلك ..

وكلمة ﴿ لِرَجُلٍ ﴾ هنا لا تعني الذكر المقابل للأنثى ، إنّما تعني الساعي والمتحرّك بقصده وإرادته باتِّجاه محدَّد ، وقد ورد ذلك في كتاب الله تعالى ..

﴿ حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٣٨ – ٢٣٩]

﴿ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [الحج : ٢٧]

.. إذاً .. كلمة ﴿ قُلُوبُكُمَا ﴾ في العبارة القرآنيّة ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ تعني التوجّهات المختلفة والرؤى المتباينة ، وذلك قبل عزم الأمر على توجّه واحد ، فقبل التوبة لكلٍّ واحدٍ هناك توجّهات مختلفة (قلوب) ، وهذه القلوب تُجمع في توجّهٍ (قلب) واحد حينما يتمّ عزم الأمر على التوبة ..

.. أمَّا القول بأنَّ المراد بالجمع ﴿ قُلُوبُكُمَا ﴾ هو التثنية ، وإنما اختير الجمع على التثنية لأن أكثر ما يكون عليه الجوارح اثنان اثنان في الإنسان كاليدين والرجلين والعينين ، فلما جرى أكثره على ذلك ذهب بالواحد منه إذا أضيف إلى اثنين مذهب الاثنين ، هو قول لا دليل عليه ، ويخالف ظاهر الصياغة القرآنيّة ، وهو نتيجة عدم الإدراك السليم لدلالات آيات كتاب الله تعالى ..

.. ونرى في صياغة قوله تعالى : ﴿ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ ما يؤكِّد صحّة ما نذهب إليه في تفسيرنا لهذه الآيات الكريمة ، من عدّة وجوه ..

١ – الولاية المعنيّة في هذه العبارات القرآنيّة هي لله تعالى فقط : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَٰهُ ﴾ ، وورود صيغة الإلوهيّة ﴿ ٱللَّهَ ﴾ مع ورود كلمة : ﴿ هُوَ ﴾ ، تأكيدٌ على أنَّ هذه الولاية لا تكون إلاَّ لله تعالى .. وتأتي العناصر الأُخرى : [[﴿ وَجِبْرِيلُ ﴾ ، ﴿ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾]] كظهير للنبيِّ ﷺ (خلاص ونقاء وطهارة) بعد هذه الولاية : ﴿ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ ..

.. والولاية هنا ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ ﴾ هي – كما بيّنا – لقيم الخلاص والنقاء والطهارة ، أي ولاية للنبيِّ ﷺ كقيمة روحيّة ينظر إليها المؤمنون كقمّة لها إسقاطاتها في نفوسهم ، حسب درجات خلاصهم ونقائهم وطهارتهم .. فالضمير (الهاء) في كلمة : ﴿ مَوْلَىٰهُ ﴾ يعود – كما بيَّنا – للنبيِّ ﷺ كصفة خلاص ونقاء وطهارة ، وليس لشخصِ محمَّدٍ ﷺ ..

.. فكون الولاية تتعلَّق بصفة الإلوهيّة ، وهي لله تعالى فقط ، وكون صفة النبوّة بما تعنيه من قيم روحيّة من خلاص ونقاء وطهارة بعيداً عن الجانب الشخصي البشري ، هي – بماهيّتها – صفة غير ماديّة وغير شخصيّة .. كلُّ ذلك رابطٌ بين قيمتين روحيّتين غير ماديّتين ، وغير مصبوغتين بلون التاريخ ..

٢ – العناصر التي هي ظهير للخلاص والنقاء والطهارة بعد هذه الولاية : [[﴿ وَجِبْرِيلُ ﴾ ، ﴿ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾]] هي – أيضاً – قيم روحيّة وليست ماديّة ، فتعلُّقها هو بصفة النبيِّ ﷺ وليس بالشخص محمَّد ، فجبرييل عليه السلام ﴿ وَجِبْرِيلُ ﴾ ، والملائكة ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ ليسا أجساداً ماديّة .. والعبارة ﴿ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بهذه الصيغة التي ترد بها ، دون أيِّ صيغة أُخرى [[على سبيل المثال (والمؤمنون الصالحون)]] تؤكِّد تعلَّق الأمر بقيم روحيّة يتعلَّق بها الخلاص والنقاء والطهارة ، وليس بالجانب الشخصي البشري .. كيف ؟ ..

صيغة : (والمؤمنون الصالحون) تعني المؤمنين كبشر ، الذين يتَّصفون بصفة الصلاح ، أي تعني أشخاص المؤمنين كقيمة ماديّة إضافة للقيمة الروحيّة ، بينما العبارة القرآنيّة : ﴿ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ تعني الجانب الصالح كقيمة روحيّة في نفوس المؤمنين ، وهو الجانب المتعلِّق بالخلاص والنقاء والطهارة في نفوسهم ..

.. والعبارة القرآنيّة ﴿ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ترد كعنصرٍ ظهيرٍ لصفة الخلاص والنقاء والطهارة ، وترد متوسّطةً ما بين العنصر الأوّل : ﴿ وَجِبْرِيلُ ﴾ وبين العنصر الثالث : ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ .. وكلُّ ذلك يؤكّد أنَّ قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ يتعلّق بالنبيِّ ﷺ كخلاص ونقاء وطهارة ، وليس بشخصِ محمَّدٍ ﷺ كبشرٍ .. ويؤكّد في الوقت ذاته صحّةَ ما نذهب إليه من أنَّ قوله تعالى ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا ﴾ يتعلّق بشخص محمَّدٍ ﷺ كبشرٍ وبشخص الزوجة المعنيّة في الآية السابقة ، كون التوبة التي يطالبان بها هي لصالح مبدأ الخلاص والنقاء والطهارة وما يتعلّق به من أحكام ، ذلك المبدأ الذي مولاه الله تعالى ، وظهيره بعد هذه الولاية جبريل وصالح المؤمنين والملائكة ..

٣ – كون : [[﴿ وَجِبْرِيلُ ﴾ ، ﴿ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾]] ((كظهير للنبيِّ ﷺ)) قيماً غير ماديّة ، وكونهم ظهيراً للنبيِّ ﷺ هو أمرٌ واقعٌ سواءٌ استمرَّ التظاهر المعني بقوله تعالى ﴿ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ ﴾ أم لم يستمر ، بمعنى كون التوبة ستحصل أم لم تحصل ، وكونهم من جملة الجواب على احتمال الاستمرار بهذا التظاهر ، وكون الكلمتين [﴿ تَظَٰهَرَا ﴾ ، ﴿ ظَهِيرٌ ﴾] تعودان لجذرٍ لغويٍّ واحد ، وكون كلمة ﴿ تَظَٰهَرَا ﴾ تتعلّق بالبديل عن التوبة إلى الله تعالى ، وكون كلمة ﴿ ظَهِيرٌ ﴾ تتعلّق بالإجابة على ذلك ... كلُّ ذلك يؤكّدُ صحّةَ ما نذهب إليه في تفسير هذه الآيات الكريمة ، كوحدة مترابطة من المعاني تحمل الأدلّة التي نبيّنها ، وتنقض ما تذهب إليه التفاسير الموروثة ..

.. وهنا قد يستغرب بعضهم ذلك ، كيف يُطلَب من شخصِ محمَّدٍ ﷺ التوبة ؟ ، وكيف من الممكن أنَّه تظاهر مع زوجه على صفة النبوّة ؟ .. وهنا سيتاجر الأفّاكون

الكذّابون من عابدي أصنام التاريخ الذين يقدّسون آلاف الروايات المسيئة لشخص النبيِّ ﷺ (التي وضعها أسلافهم) والتي يستخدمها أعداء الإسلام في الهجوم عليه ، ومنها – كما بيّنا – الروايات التي لفّقوها لهذا النصِّ الذي نحن بصدد تفسيره ، هنا سيتاجرون بذلك من أجل ذرِّ الرماد في أعين البسطاء لإبقائهم في مستنقعات القال والقيل ..

.. العتاب لشخصِ محمَّدٍ ﷺ ورد في كتاب الله تعالى ، وبصور أقوى ممّا يرد في هذا النصِّ .. يقول تعالى ..

﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ [الإسراء : ٧٣ – ٧٥]

.. لا شكَّ أنَّ هذا النصَّ الكريم لا يخاطب الرسول ولا يخاطب النبيَّ ﷺ ، إنَّما يُخاطب محمَّداً كبشرٍ إنسانٍ له هواجسه النفسيّة .. ودلالات النصِّ واضحة جليّة ، ولا تنفع معها كلُّ محاولات اللف والدوران وذرِّ الرماد في الأعين .. وهذا النصُّ الكريم يبيّن بشريّة محمَّدٍ ﷺ بما تحمل نفسه البشريّة كإنسان ، ويبيِّن – في الوقت ذاته – أنَّ هذا النصَّ من المستحيل أن يكون من عند محمَّدٍ ﷺ ..

.. والنصُّ التالي يخاطبُ أيضاً شخصَ محمَّدٍ ﷺ دون صفتي الرسالة والنبوّة ، ومن بعده كلَّ إنسان ..

﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [يونس : ٩٤ – ٩٥]

.. وكما رأينا في الآية الأولى من هذا النصِّ أنَّه هناك نهيٌ من الله تعالى لنبيِّه ﷺ ، وهناك دعوة للتراجع عمّا حرَّمه ﷺ ، ورأينا في الآية الثانية أنَّه هناك تبيان لما فرضه الله تعالى من تحلّة للأيمان لكافّة المؤمنين .. ورأينا أنَّه ليس من حقِّ محمَّدٍ ﷺ بأن يفعل ذلك تجاه ساحة النقاء والخلاص والطهارة ، فليس من حقِّه ﷺ ولا يجوز له أن يمنع من تريد دخول هذه الساحة ، وهذا يترتَّب عليه توبة إلى الله تعالى ، بمعنى عودة عن ذلك ..

والزوجة المتعلِّقة بصفة الزوجيّة مع قمّة محور الخلاص والنقاء والطهارة لا يحقُّ لها أن تسحبها الغيرة إلى دفعه ﷺ لأن يمنع من تريد الدخول في هذه الساحة ، ولا يحقُّ لها أن تبوح بأيِّ سرٍّ يضعه عندها قمّة محور الخلاص والنقاء والطهارة ..

كلُّ ذلك يتطلَّب توبةً من محمَّدٍ ﷺ كشخص ومن شخص الزوجة المتعلّقة معه بصفة الزوجيّة ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ ﴾ ، ومقابل التوبة هو الاستمرار بتجاوز هذا الأمر ، بمعنى الخشية من الناس من قبل شخص محمَّدٍ ﷺ خوفاً من الهمز واللمز ، وترجيح الزوجة لغيرها على الأحكام المتعلِّقة بحقِّ مَن تريد دخول ساحة الخلاص والنقاء والطهارة ، والبوح بما يجب ألا تبوح به ممّا يسرّه إليها قمّة محور الخلاص والنقاء والطهارة ، وكلُّ ذلك كتفاعل مشترك للجانب الشخصي بينهما ، هو تظاهر على حساب قمّة محور الخلاص والنقاء والطهارة : ﴿ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ ..

.. الذين يودّون اتّباع منهج الله تعالى يبحثون عن كلِّ حقيقة يحملها كتاب الله تعالى ، ولا يتَّخذون أيَّ صنمٍ يحول بينهم وبين رؤية الحقِّ في كتاب الله تعالى .. والذين يعشقون عبادة الأصنام يسيئون للنبيِّ ﷺ جحوداً بآيات الله تعالى ، فجحودهم ليس متعلِّقاً – في النهاية – بشخص محمَّدٍ ﷺ ((سواءٌ بالمغالاة ، أم بعدم الإيمان بكونه رسولاً)) ، أبداً ، جحودهم هو بكتاب الله تعالى ..

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٣]

.. فمن يحارب محمَّداً ﷺ جحوداً بآيات الله تعالى ، كون ما أنزله الله تعالى على محمَّدٍ ﷺ ينقض أصنامه ، لا يختلف عمّن يضع التاريخ (بما فيه شخص محمَّدٍ ﷺ وآل البيت والصحابة) فوق المنهج جحوداً بدلالاته الواضحة واضوح الشمس وسط النهار ..... كلاهما وجهان لعملة واحدة هي القفز فوق منهج الله تعالى ..

.. أليس قولهم بأنَّ الحديث ينسخ كتاب الله تعالى هو انتقاصٌ من كتاب الله تعالى ، وفرضٌ لأهواء بعض السابقين على دلالات كتاب الله تعالى ؟ .. أليس تقديسهم لروايات وضعها أسلافهم وينقضها كتاب الله تعالى هو حربٌ على كتاب الله تعالى ؟ ..

الطامّة الكبرى أنَّهم في الوقت الذي يتباكون فيه على السنّة الشريفة وعلى شخص محمّدٍ ﷺ ، في الوقت ذاته يقدِّسون رواياتٍ لا تحمل لكتاب الله تعالى وللسنّة ولشخصِ محمَّدٍ ﷺ إلاَّ أبشع الإساءات .. من هنا نرى أنَّ زعمهم بحبِّ النبيِّ ﷺ ، وبحبِّ أهل البيت (عند الشيعة) ، وبحبِّ الصحابة (عند السنّة) ، هو من أجل تمرير ما يقتضيه منهجهم الصنمي تحت شعاراتٍ برّاقة مثل : السنّة الشريفة ، أو عصمة أهل البيت ، أو عدالة الصحابة ، كلُّ ذلك يحدث في الوقت الذي لا يختلف فيه اثنان أنَّه لو وضعنا كلَّ أهل البيت وكلَّ الصحابة في كفّة ميزان ووضعنا في الكفّة الأخرى حرفاً من كتاب الله تعالى ، لرجحت كفّةُ حرف كتاب الله تعالى ..

.. ولو تتبّعنا سمت الخطاب في هذا النصِّ الكريم لرأيناه يتدرَّج من مخاطبة قمّة محور النقاء والخلاص والطهارة وحده في الآية الأولى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ﴾ ، وما فرضه الله تعالى من تحلَّة للأيمان ، هبوطاً إلى العلاقة الزوجيّة – بما تعني من قيم ومبادئ روحيّة – بين قمّة محور النقاء والخلاص والطهارة وزوجة من أزواجه كتبيانٍ لما

يجب أن تكون عليه هذه العلاقة : ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا ﴾ ، هبوطاً إلى الجانب الشخصي لمحمَّدٍ ﷺ ولهذه الزوجة : ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ ، هبوطاً إلى احتمال الاستمرار بالتظاهر على أحكام مبدأ الخلاص والنقاء والطهارة : ﴿ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾ ، هبوطاً إلى مخاطبة الجانب الشخصي لتلك الزوجات ، حيث الآية التالية التي تأتي بسمت المخاطَب ، وبصيغة الجمع ..

﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴾

وما نراه في هذه الآية الكريمة :

١ – ورود كلمة ﴿ رَبُّهُۥٓ ﴾ في العبارة ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ ﴾ ، وهي من صفة الربوبيّة ، فإمكانيّة طلاقهنّ والإتيان بأزواجٍ خير منهنّ ، هي إمكانيّة تتعلّق بالربوبيّة بما تعنيه من تسخير للأسباب بين يديه ..

.. بينما في سياق هذا النصِّ ، وفي ولاية الله تعالى لصفة الخلاص والنقاء والطهارة ، بشكلٍ مجرَّدٍ عن الجانب الشخصيِّ لمحمَّدٍ ﷺ ، رأينا التعلّق بصفة الإلوهيّة وليس الربوبيّة : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ ﴾ ..

٢ – نرى ورود كلمة ﴿ إِن ﴾ وليس (إذا) ، فالمسألة قد تحدث وقد لا تحدث .. وفي ذلك دليلٌ على أنَّ المسألة تحمل أحكاماً فوق التاريخ ، لتصوِّر العلاقة بين قمّة محـــور الخلاص والنقاء والطهارة مع مَنْ ارتضت الدخول بساحة الزوجيّة مع هذه القمّة تقرّباً إلى

الله تعالى ، وذلك كسقفٍ تنظر إليه كلُّ زوجة في كلِّ زمانٍ ومكـــان .. فـــالأمر لـــيس محصوراً بالجانب التاريخي كما تذهب تفاسيرنا الموروثة ..

٣ – الآية الكريمة تُخاطب كلَّ الأزواج وليس بعضهن ، فكلمتا : [﴿ طَلَّقَكُنَّ ﴾ ، ﴿ مِّنكُنَّ ﴾] تؤكِّدان ذلك ..

٤ – لو أخذنا الإسقاط التاريخي لزوجات النبيِّ ﷺ في الجيل الأوَّل ، لرأينا أنَّهـــنَّ لم يكن أفضل النساء في ذلك العصر ، فالعبارة القرآنيّـــة ﴿ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ ﴾ حقٌّ وليست خيالاً ، والله تعالى يعني بالعبارة ﴿ خَيْرًا مِّنكُنَّ ﴾ نساءً من عصرهن .. وهذا ليس انتقاصاً منهنَّ .. أبداً .. يكفيهنَّ من الشرف أنَّهنّ وصفن بصفة الزوجيّة للنبيِّ ﷺ ..

وهنا قد يقول قائل : ما دام هناك نساء في الجيل الأول فيهنّ من الخير أكثـــر مـــن زوجات النبيِّ ﷺ ، فكيف إذاً تكون الأحكام الواردة في هذا النصِّ سقفاً تنظر إليه تلـــك النساء اللاتي فيهنّ خير أكثر من زوجات النبيِّ ﷺ ؟! ..

.. نقول : السقف الذي على كلِّ زوجة أن تسير تحته ، هو في العلاقة التي ترسمهـــا دلالات كتاب الله تعالى ، وليس في القيم الشخصيّة ، فالعلاقة في الزوجيّة مع قمّة محـــور الخلاص والنقاء والطهارة بيّنها الله تعالى في كتابه الكريم ، ولذلك نرى كيف أنَّ الله تعالى أمر نبيّه ﷺ بأن يخيِّر أزواجه ما بين هذه العلاقة التي لها تعلّقها بمنهج الرسالة التي أنزلها الله تعالى ، وبين الحياة الدنيا بما تحمل من شهوات وغير ذلك ..

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٢٨ – ٢٩]

٥ – يبيِّن الله تعالى صفات النساء اللاتي هنَّ خيرٌ من زوجات النبيِّ ﷺ ، واللاتي اكتسبن هذه الدرجة كونهن يتَّصفن بهذه الصفات ..

﴿ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴾

الصفة الأولى ﴿ مُسْلِمَٰتٍ ﴾ ، ونحن نعلم أنَّ صفة الاسلام تعني الانقياد في الجوارح والأعمال الظاهرة ، فنحن نستطيع أن نشهد على إسلام الإنسان ، كون الإسلام يعني الانقياد الظاهري بالجوارح ..

الصفة الثانية ﴿ مُّؤْمِنَٰتٍ ﴾ ، ونحن نعلم أنَّ صفة الإيمان تعني الاطمئنان بالقلب ، ونعلم أنّنا كبشر لا نستطيع أن نشهد على إيمان أيٍّ من البشر ، كون الإيمان في القلب ، ولا يعلم حقيقته إلاَّ الله تعالى ..

الصفة الثالة ﴿ قَٰنِتَٰتٍ ﴾ ، والقنوت هو الإصغاء والاتّجاه نحو الالتزام بالطاعة ..

الصفة الرابعة ﴿ تَٰٓئِبَٰتٍ ﴾ ، والتوبة هي العودة إلى الحقِّ ..

الصفة الخامسة ﴿ عَٰبِدَٰتٍ ﴾ ، والعبوديّة هي الانصياع للأمر والالتزام به ..

الصفة السادسة ﴿ سَٰٓئِحَٰتٍ ﴾ ، وهي صفة تتعلَّق بالحركة والهجرة ، بمعنى يتحرَّكن مهاجرات في ساحة الخلاص والنقاء والطهارة ..

.. وما نراه حتّى الآن هو عدم ورود حرف عطف بين هذه الصفات .. بينما الكلمتان : ﴿ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ نرى بينهما حرف عطف ، فهما تصفان أمرين متقابلين لا ينفكَّان في اتّصاف تلك النساء بهما ..

.. بكر الشيء بدايته ، ولذلك ورد في كتاب الله تعالى مقابلاً للعَشِي ..

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ [مريم : ١١]

.. فمشتقّات الجذر (ب ، ك ، ر) تعني إقبالَ الشيء ..

﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ [القمر : ٣٨]

.. ومَن أنشأهنَّ الله تعالى لأصحاب اليمين يتَّصفن بصفة ﴿ أَبْكَارًا ﴾ ..

﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴾ [الواقعة : ٣٥ – ٤٠]

وصفة ﴿ أَبْكَارًا ﴾ في هذا النصِّ الكريم لا علاقة لها بالجنس والأنوثة أبداً ، فمن جهة لا تُوجَد في الآخرة أصلاً أعضاءٌ جنسيّة كتلك التي في الدنيا ، وقد بيّنت ذلك في كتاب : قصّة الوجود ، ومن جهةٍ أُخرى فإنَّ ﴿ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴾ ليسوا ذكوراً فقط ، فهم ذكور وإناث ..

.. من هنا نرى أنَّ الكلمتين ﴿ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ تعنيان الحركة بوجهيها ، ذهاباً ومجيئاً ، إدباراً وإقبالاً ، غياباً وحضوراً .. بمعنى أنَّ الصفات السابقة ﴿ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ﴾ يتمتّعن بها في كلِّ حركاتهنّ ، سواءٌ في غيابهنّ أم في حضورهنّ ، سواءٌ في إدبارهن أم في إقبالهنّ ، سواءٌ في ذهابن أم في مجيئهنّ ..

وما نراه في هذا النصِّ ((وفي كلِّ نصوص كتاب الله تعالى)) أنَّ الله تعالى لم يذكر اسماً لزوجة من هذه الزوجات ، فكما قلنا المسألة مسألة أحكام عامّة تصوِّر العلاقة بين قمّة محور الخلاص والنقاء والطهارة وبين الزوجة المتعلّقة بهذه القمّة ، وذلك كسقفٍ على كلِّ زوجة مؤمنة في كلِّ زمانٍ ومكان أن تنظر إليه سائرةً تحت ظلال أحكامه ..

وكما قلنا النصُّ يتدرَّج في مخاطبته بالهبوط ابتداءً من قمّة محور النقاء والخلاص والطهارة ، إلى العلاقة بين هذه القمّة والزوجيّة معه ، إلى الجانب الشخصيِّ لمحمَّدٍ ﷺ

والجانب الشخصي لمن تتعلّق معه في إطار علاقة الزوجيّة ، إلى الجانب الشخصي لزوجاته .. ليصل في الآية التالية إلى مخاطبة جملة المؤمنين والمؤمنات ..

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾

.. وبالعودة إلى الروايات التاريخيّة ، نرى أنّها تحمل الكثير من صور الجانب الشخصي لمحمّدٍ ﷺ دون صفتي الرسالة والنبوّة .. لننظر في الروايات التالية التي نعرضها ليس من باب الاعتقاد بصحّتها ، وإنّما من باب الرد على المطبّلين والمزمّرين والمتاجرين بعواطف السذّج ..

البخاري (٤٧٢١) حسب ترقيم العالميّة :

حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامٍ حَدَّثَنَا ابْنُ فُضَيْلٍ حَدَّثَنَا هِشَامٌ عَنْ أَبِيهِ قَالَ كَانَتْ خَوْلَةُ بِنْتُ حَكِيمٍ مِنْ اللَّائِي وَهَبْنَ أَنْفُسَهُنَّ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ عَائِشَةُ أَمَا تَسْتَحِي الْمَرْأَةُ أَنْ تَهَبَ نَفْسَهَا لِلرَّجُلِ فَلَمَّا نَزَلَتْ تُرْجِئُ مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَرَى رَبَّكَ إِلَّا يُسَارِعُ فِي هَوَاكَ رَوَاهُ أَبُو سَعِيدٍ الْمُؤَدِّبُ وَمُحَمَّدُ بْنُ بِشْرٍ وَعَبْدَةُ عَنْ هِشَامٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ يَزِيدُ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ

مسلم (٢٦٥٨) حسب ترقيم العالميّة :

حَدَّثَنَا أَبُو كُرَيْبٍ مُحَمَّدُ بْنُ الْعَلَاءِ حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ عَنْ هِشَامٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ كُنْتُ أَغَارُ عَلَى اللَّاتِي وَهَبْنَ أَنْفُسَهُنَّ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَقُولُ وَتَهَبُ الْمَرْأَةُ نَفْسَهَا فَلَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنْ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ قَالَ قُلْتُ وَاللَّهِ مَا أَرَى رَبَّكَ إِلَّا يُسَارِعُ لَكَ فِي هَوَاكَ

مسند أحمد (٢٣٨٧٧) حسب ترقيم العالميّة :

حَدَّثَنَا عَفَّانُ قَالَ حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ قَالَ أَخْبَرَنَا هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ قَالَ قَالَتْ

عَائِشَةُ لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ قَالَ قَالَتْ عَائِشَةُ مَا أَرَى رَبَّكَ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا يُسَارِعُ لَكَ فِي هَوَاكَ

.. فالمطبِّلون والمزمِّرون لتقديس أفراد الجيل الأوَّل ، لا يسرُّهم النظر في هذه الروايات وغيرها الكثير الكثير ، لأنَّهم يعلمون في قاع أنفسهم أنَّها تحمل إساءة لشخص النبيِّ ﷺ ، بل تحمل شكًّا لا يليق بالقدسيّة التي يتاجرون بها ليل نهار في سوق السذاجة وتغييب العقل ..

.. وكيف بنا أن نُوفِّق بين القول المنسوب لعائشة : [[وَاللَّهِ مَا أَرَى رَبَّكَ إِلَّا يُسَارِعُ لَكَ فِي هَوَاكَ]] ، والذي يقدِّسونه ويكفِّرون من ينكره ، وبين محاربتهم للتدبّر السليم في كتاب الله تعالى وتجييش السذَّج ضدَّه ، ذارّين الرماد في أعين أولئك السذَّج على أنَّه إساءة للنبيِّ ﷺ وللسنّة الشريفة ؟!!!!!! ..

.. المتاجرون بالسنّة الشريفة وبحبِّ المسلمين للنبيِّ ﷺ ، من جهةٍ هم يكفِّرون من يحاول فهم دلالات كتاب الله تعالى بعيداً عن مستنقعاتهم ورواياتهم التي لا تحمل إلاَّ الإساءة لما يزعمون أنَّهم يقدِّسونه ، ومن جهةٍ أخرى يتمسَّكون بالتاريخ الذي يحوي الكثير من الإساءة لكلِّ ما يتعلَّق بمنهج الله تعالى ..

ومردُّ كلِّ ذلك هو جعل التاريخ بأشخاصه ورواياته منهجاً بديلاً عن منهج الله تعالى ، وهم بذلك يتجاوزون عابدي الأصنام جحوداً ، فالصنم يعتبره عابده قربى إلى الله تعالى ، بينما هؤلاء يجعلون رواياتهم حجّة على كتاب الله تعالى ..